سورة الغاشية

مكية، وهي سبع وعشرون آية مع البسملة

هذه السورة مكية بالاتفاق؛ فقد روي عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير أنها نزلت بمكة، وحيث إنه لم يُروَ خلاف ذلك، فلا شبهة في كونها مكية. (فتح البيان)

وقال القسيس "ويري" إن زمن نزول هذه السورة قريب من السنة الرابعة للبعثة النبوية، إذ يتضح من مضمونها أن اضطهاد الكفار للمسلمين بدأ في ذلك الوقت أو كان على وشك أن يبدأ. وهذا ما يراه نولدكه الألماني أيضًا. (تفسير "ويري")

وهذا هو رأي الصحابة أيضًا. مما يعني أن هذه السورة قد نزلت في بداية البعثة بحيث لا يُتصوَّر أن يقال عنها قول آخر، فلا نحتاج إلى رفض أي رأي حولها. ولما كان مضمون هذه السورة يومئ إلى أن العدو على وشك أن يبدأ بعدائه للمسلمين.. أي أنه لم يكشف عن عدائه لهم عمليًا، ولكنه يخطط لاضطهادهم، وأن المسلمين كانوا في حيرة من أمرهم، فإن استدلال الكتاب الأوروبيين بذلك على أن هذه السورة من أوائل ما نزل ليس بخطأ، بل هو صحيح حسب الروايات الإسلامية أيضا.

فقد روي عَن النُّعْمَان بْن بَشير قوله: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعيدَيْن وَفِي الْجُمُعَة بِـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَديثُ الْغَاشيَة﴾. قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحد يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاتَيْن. (مسلم: كتاب الجمعة، أحمد: مسند عبد الله بن مسعود، النسائي: كتاب الصلاة، أبو داود: كتاب الجمعة، ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة)

هذه السنة النبوية تؤكد أن لهاتين السورتين صلةً وثيقة بحياة المسلمين الاجتماعية. إن صلة سورة "الأعلى" بالإسلام واضحة حيث أخبرت أن القرآن هو القول الفصل، كما بيّنت كيف يبلغ الإسلام أوج رقيه وغلبته، فقد بين الله تعالى فيها أن الإسلام سيجد خدامًا يحفظون القرآن، وستقع تطورات غير عادية في الدنيا تؤدي إلى حفظه. سورة "الأعلى" تشير إلى ازدهار الإسلام وانتشاره وكثرة أتباعه وغلبة المسلمين. أما سورة الغاشية فرغم أنها تناولت موضوعًا آخر إلا أنها أيضًا تنبئ أن الكافرين سيعادون الإسلام ساعين للقضاء عليه، ولكن المؤمنين سينجحون في هذا النضال. وحيث إنها نزلت في أوائل الإسلام و لم يُرِد الله تعالى إثارة الكفار من دون داع، فلم يخبر فيها بكلمات صريحة عن هذه الحرب والنضال، بل استخدم كلمات لا تثير حفيظتهم. فكما أن العدو لم يكشف عداءه، كذلك لم يصرح الله تعالى في هذه السورة أن المسلمين سيحاربون الكفار ويغلبونهم، وإنما اكتفى هنا بذكر النتيجة فقط وهي أن أعداء الإسلام لن يضروه شيئا رغم بذلهم أقصى جهد، وسيصبح المسلمون غالبين في نهاية المطاف، وذلك حتى لا تُعتبر مثل هذه الصراحة استفزازا للكفار الذين لم يكونوا قد شنوا الهجوم على الإسلام علنًا بَعْد.

إن مضمون هذه السورة أيضا يدور حول الأعمال الجماعية، حيث أنبأ الله تعالى فيها بقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ برقي الأمة وليس برقيّ النبي ﷺ وحده، كما أنبأ بقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ عن جماعة الكافرين أنهم سيبوءون بالفشل في حربهم ضد المسلمين. الواقع أن سورتي الأعلى والغاشية كلتيهما تتحدثان عن زمن النبي ﷺ والزمن الأخير للإسلام، ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ يتلوهما في الجمعة والعيدين دائمًا. والجمعة والعيدان مناسبات جماعية، ففي تلاوته ﷺ لهاتين السورتين في هذه المناسبات إشارةٌ إلى أن معارفهما ستنكشف كلما توجه المسلمون إلى اكتساب القوة الجماعية وكلما أراد الله تعالى إزالة ضعفهم.

لقد بين الله تعالى من قبل في سورة الأعلى أن المسلمين لن يحرزوا الرقيّ إلا إذا ظهر فيهم مأمور من الله تعالى يكشف لهم معارف القرآن وعلومه، بتعبير آخر لن

يتم رقيهم بوسائل مادية أبدا، وإنما بإيمانهم بالمأمورين من الله تعالى واهتدائهم بهديهم، كما دل عليه قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، حيث بيَّن الله تعالى أن المسلمين سيستردّون مجدهم الغابر بواسطة خدام الإسلام الذين سيعودون بالقرآن المنسيّ المهجور ثانية. فالذين يريدون اليوم رقيّ المسلمين بوسائل سياسية عليهم أن يفكروا في مضامين سورة الأعلى.

أما سورة الغاشية فقد بيّن فيها أن الإسلام لن يحرز هذا الرقي في الزمن الأخير إلا تحت المعارضة الشديدة، أي لن يأتي إلى الدنيا أي مأمور رباني يستقبله الناس على بساط من الورود وهتافات الحفاوة والترحيب، بل عندما يأتي أي مأمور تكون هناك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، ولا بد له من المعارضة، لأن رقي أي جماعة سماوية من دون معارضة محالٌ. يظن غيرنا من المسلمين أنه حين ينـــزل المسيح الناصري عليه السلام من السماء فلن يكون هناك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، بل سيقف الناس لاستقباله بكل وقار واحترام، ويدخلون في خدامه، لأنه سينـــزل مع الملائكة ولن يجسر أحد على إنكاره! ولكن سنة الله المستمرة تبين لنا أن هذا لن يحدث أبدًا، بل لا بد لكل جماعة ربانية من أن تواجه المعارضة، ثم بعدها يُكتب لها الغلبة والازدهار.

باختصار، يتضح من هاتين السورتين كلتيهما أن الإسلام يزدهر دائما بعد المعارضة. فثبت من هنا أن بين السورتين صلة وثيقة من حيث الموضوع.

وقد ذكر صاحب "البحر المحيط" صلة قريبة بين السورتين، وهي أن الله تعالى قد أمر في الأُولى بإنذار الناس من النار والآخرة، بينما تتحدث الثانية عن الجنة والنار. ولكن الواقع أن الصلة الحقيقية بين السورتين هي ما ذكرتُه بأن الله تعالى قد ذكر فيهما مبدأين لازدهار الإسلام، حيث بيّن في سورة الأعلى أنه لن يتردّى المسلمون إلا لهجرانهم القرآن الكريم ونسيانه، وأنهم لن يزدهروا إلا عن طريق شخص يعود بالقرآن من السماء.. أي سيُبعث إليهم المأمورون الربانيون الذين يُذكّرونهم بالقرآن الذي اتخذوه مهجورا، ومع ذلك لن يأتيهم أي مأمور بشريعة جديدة. وأما سورة الغاشية فبيّن الله تعالى فيها أن ازدهار المسلمين، سواء في الزمن

الأول أو في الزمن الأخير، لن يتم إلا على أيدي المأمورين الذين سيلقون معارضة شديدة، ولكنهم سينتصرون في النهاية، كما هو بيِّن من قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾. لذا فعلى المسلمين أن يتذكروا دائمًا أنهم لن يزدهروا إلا بالإيمان بالمأمورين الربانيين وبمعارضة العالم كله لهم، ولن يأتيهم أحد يصدّقه الناس بسهولة، ففكرة نزول مأمور من السماء لا يلقى المعارضة تخالف القرآن تماما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

هل: تأتي بمعنى (قد)، ولكن على العموم هي حرفٌ موضوع لطلب التصديق الإيجابي (مغني اللبيب).. أي لسؤال طُلب فيه التصديق.. إلا أن يأتي بعده (إلا)، فيفيد النفي، فالمراد من الآية: أأتى حديثُ الغاشية أم لا.. أي قد أتى. أو المعنى: قد أتى فعلا.

حديث: الحديث: الخبر. (الأقرب)

الغاشية: مؤنث الغاشي، والغاشية: الغطاءُ؛ القيامةُ لأنها تغشى بأفزاعها (الأقرب). وسُمّيت القيامة بالغاشية لأن المحنة الشديدة تُنسي المرء همومه الأخرى؛ ولما كانت القيامة حادثة كبيرة شديدة تستولي على كل أفكار الإنسان وهمومه حتى ورد في القرآن أن كل إنسان ينسى الآخرَ حتى تنسى الأم ولدها، فلذلك سُميتْ غاشية.

ومن معاني الغاشية: نار جهنّم (الأقرب). وقد سُمِّيت بذلك لأن عذابها شديد محيط. حيث يجد الإنسان مهربًا من العذاب الدنيوي، وإذا عُذّب من ناحية، نال السكينة من ناحية أخرى؛ فمثلا: إذا مات له ابنٌ، فإن ابنه الثاني موجود يلعب أمامه، وإذا مات والدُ شخص، فإن أُمّه موجودة، أو أقاربه الآخرون موجودون،

فيجد عندهم السلوان. أو إذا تعرض لخسارة مال، جلب ربحًا آخر من ناحية أخرى. فثبت أنّ هناك مهربًا للإنسان من كل أنواع العذاب الدنيوي، حيث يُعذَّب من ناحية، وينال الراحة من ناحية أخرى. أما عذاب جهنم فيكون متكاملا لا سبيل للراحة إزاءه، ولذلك سُمي غاشية.

والغاشية: الداهية ومنه: "تأتيه غاشية من عذاب الله".. أي نائبة تغشاه. والغاشية: قميص القلب؛ داء في الجوف؛ السُؤّالُ يأتونك؛ الخدم يغْشونك؛ والزُوّار والأصدقاء ينتابونك. (الأقرب)

التفسير: يتضح من القرآن الكريم أن من عذاب الله عذابًا خاصًّا يستحق أن يُطلق عليه "الغاشية"، وقد نزل في زمن الرسول ﷺ وسينـــزل أيضًا في زمن المسيح الموعود عليه السلام بحسب الأنباء. قال الله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الدخان:١١-١٢).. ولما آذى أهل مكة النبيَّ ﷺ إيذاء شديدا دعا عليهم بحسب هذه النبوءة القرآنية قائلا: "اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ." (البخاري: كتاب التفسير).. أي رب، قد آذاني هؤلاء إيذاء شديدا، فأعنّي عليهم بسبع سنوات من القحط والمجاعة كما أعنْتَ يوسف عليه السلام بسبع شداد. فحلّ قحط شديد وانقطع المطر وهلك الناس، حتى جاء أبو سفيان إلى النبيّ ﷺ وقال: قد هلك قومك جوعًا فادعُ الله أن يكشف عنهم. ✸

فكما بعث فرعونُ سفراءه إلى موسى عليه السلام ليدعو لهم ربَّه ليكشف عنهم العذاب، كذلك أرسل أهل مكة سفيرهم إلى النبي ﷺ ليدعو لهم حتى يكشف الله عنهم القحط. فدعا النبي ﷺ ورفع الله هذا العذاب.

إذن، فمن معاني ﴿الغاشية﴾ عذاب دخانٍ ذُكر في سورة الدخان.

ورد في الحديث: عَنْ مَسْرُوق قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّه: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهَ ﷺ لَمَّا رَأَى قُرَيْشًا اسْتَعْصَوْا عَلَيْه فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ. فَأَخَذَتْهُمْ السَّنَةُ حَتَّى حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْجُلُودَ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَجَعَلَ يَخْرُجُ منْ الأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَان. فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَيْ مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ فَدَعَا. (البخاري: كتاب التفسير) (المترجم)

وهناك نبوءة عن نزول عذاب دخان مبين في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، فقد جاء في الوحي النازل عليه: "يوم تأتي السماء بدخان مبين، وترى الأرضَ يومئذ خامدة مصفرة." (التذكرة ص ٥٠٤)

بالإضافة إلى أنواع العذاب المشار إليها في إلهامات المسيح الموعود عليه السلام هناك نبأ عن عذابِ قحط أيضا، حيث أخبره الله تعالى أنه سيأتي على الناس سنوات من الضيق الشديد والمصائب العظمى. وقد وقع القحط في عصره عليه السلام نتيجة الحروب علاوةً على أنواع القحط والمجاعة التي وقعت في زمنه، وقد بلغ من الشدة بحيث لم يوجد له نظير في الأزمنة الخالية. إذا استمر القحط سنة واحدة نشر دمارًا كبيرًا عادةً، أما هذا القحط فكان شديدًا حتى عجزت شعوب كثيرة عن ملء بطونها لست سنوات. لقد بدأ في أوائل ١٩٤٢ فأدى إلى نقص شديد في الغلال. كنتُ عندها في السند، فبلغني من قاديان أن الناس لا يجدون القمح، وإذا وجدوه كان رديئا وخبزه أسود اللون. لقد رأيت ذلك القمح فوجدته كحبوب "الكمون"، ولونه كلون السكر الأسود، ولا يصلح خبزه للحيوانات، ومع هذا كان يأكله الناس مضطرين. لقد ساءت الحال في البنغال جدًا لدرجة أن بعض الناس أكلوا عظام الموتى كما أخبرتني بنت يتيمة قام أحد الأحمديين بتربيتها حيث قالت إنها قد نسيت معظم الأحداث، لكنها تتذكر هذا الأمر جيدا. ومن الثابت أن بعض النساء هناك أكلن أطفالهن! يا له من قحط مدمر! لقد مات فيه مليون شخص جوعًا في بضعة أشهر بحسب التقديرات الحكومية، وأما بحسب تقديرات الناس فقد فتك بمليونين من البشر في البنغال وحدها. وهذا العدد الهائل لم يُقتَل خلال السنوات الست للحرب العالمية هذه. في هذا العصر توجد قطارات وسيارات وباصات، ثم هناك أنهار.. وكلها تُسهّل نقل المواد الغذائية من مكان لآخر، ومع توافر وسائل النقل هذه فقد مات مليونان من الناس في البنغال وحدها في سنة واحدة جوعًا نتيجة هذا القحط. ولو وقع هذا القحط في قطر لا يمكن نقل المواد الغذائية إليه فقد لا يبقى على قيد الحياة من سكانه أحد. هناك آلاف الناس الذين هاجروا من البنغال إلى مناطق البنجاب وسَرْحَدْ، خوفًا من عدم انقطاع القحط. وقد قال

بعضهم إنه لم يبق من عائلته على قيد الحياة أحد، فهاجر ذعرًا وتساءل: لماذا أعود إلى تلك المنطقة المنكوبة ثانية؟!

هناك أحداث مرعبة كثيرة، فقد جيء بطفل مضطرب جوعا، فقُدِّم له الحليب، وبمجرد أن نزل الحليب من حلقه هلك؛ ذلك أن الفاقة الطويلة تسمِّم المعدة، وإذا دخلها الغذاء من حليب أو غيره هلك الإنسان.

فقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ يعني: هل علمتم أن المصيبة التي اسمها الغاشية، قادمة؟ لقد ذكرتُ من قبل أن (هل) تفيد التصديق الإيجابي عادة، وعليه فقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ يعني: قد أتاك حديثها، ولكن إذا دخلت (هل) على فعل فهي بمعنى (قد)، وعليه فالمراد من الآية: قد أتاك حديث الغاشية، بمعنى أن المعارضة ستشتد الآن، لذلك قد بدأت الأخبار الإلهية تصلك من الله عن عذاب الكافرين. أو المعنى: لقد أرسلنا إليك حديث الغاشية، أي أن العدو سيزداد شرًّا، ولذلك نخبرك بعذابه.

ومن معاني الغاشية مَن يزوره الناس بكثرة، وعليه فالمراد من حديث الغاشية الفتوحات.. أي ستأتيك الوفود من كل طرف وصوب. وكأن الله تعالى قد ترك الحديث عن الفترة المتوسطة من عهد الرسول ﷺ وأخبره عن أحداث الفترة الأخيرة من عهده التي تظهر فيها النتائج. وفي هذه الحالة يكون حديث الغاشية إشارةً إلى عام الوفود، حيث أخبر الله تعالى أنه ستقع حرب بينك وبين الكافرين، وستخرج منها منتصرا وستأتيك الوفود من كل مكان، ويحترق العدو برؤيتهم كمدًا، وينال المؤمن تقدمًا هائلا.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

وجوه: جمعُ وجه، ومن معانيه: سيّدُ القوم؛ ويقال رجلٌ وجهٌ: ذو جاه. (الأقرب). والمراد من الوجه هنا سادة القوم وأعيانهم.

خاشعة: خشَع له: ذَلَّ وتَطَأْمَنَ. وخشَع ببصره: غضَّه. وخشَع بصرُه: انكسر. ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: سكنتْ وذلّتْ وخضعتْ. (الأقرب)

ناصبة: نَصَبَهُ الهمُّ: أتعبَه. ونَصَب فلانٌ الشيءَ: وضَعه وضعًا ثابتا كنصبِ الرمح والبناء والحجر، ورَفَعَه، ضدٌّ. (أي أن هذه الكلمة من الأضداد، فتعني الوضع والرفع أيضا). ونَصَبَ السيْرَ: رَفَعَه، أو هو أن يسير طولَ يومه سيرًا ليِّنًا. ونصَب لفلان: عاداه. ونصَب له الحرب: وضَعها (أي حاربه). ونصَب العَلَمَ: رفَعه وأقامه مستقبلا به. ونصَب الشجرة: غرَسها في الأرض. ونصَب السلطانُ فلانا: ولاّه منصبًا. ونصَب الشرّ بفلان: أظهره له. ونصبتَ له رأيًا: أشرت عليه برأي لا يعدِل عنه. (الأقرب).

لما كان من معاني (الغاشية) المصاعب والشدائد بما فيها الحروب التي سيوقدها الكفار، فقوله تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ يعني أن أعداء الإسلام سيتآمرون عليكم الآن، ويكشفون عن أحقادهم وضغائنهم التي يخفونها في صدورهم حتى اليوم.

التفسير: لقد بينتُ من قبل أن سورة الغاشية نزلتْ في حوالي السنة الرابعة من البعثة النبوية، وهي التي بدأ فيها كفار مكة إيذاءه ﷺ بشكل منظَّم. في البداية عندما كانوا يسمعون دعوى النبي ﷺ ينفثون غضبهم قائلين: لقد أصيب المسكين بالجنون – والعياذ بالله– ولكن حين آمن به عدد من القوم لا سيما شباب الأسر العريقة وأصحاب النفوذ، مثل عثمان وطلحة والزبير.. اشتدّ الكفار في معارضة الإسلام. كان وراء هياجهم ضد الإسلام أمران: إسلام العبيد، وإيمان الشباب من الرؤساء. فلما آمن هؤلاء الفتيان بدأ الناس يقولون للذين كانوا يتهمون النبي ﷺ بالجنون: لقد انتزع هذا الفتيانَ من بيوتكم وأنتم فرحون باتهامه بالجنون وبأنه لا يقدر على أن يضركم شيئًا!! وعندما أسلم العبيدُ وأخذوا يعيبون آلهتهم قائلين: إن عبادة الأصنام عمل سخيف، فإنها لا تنفع ولا تضرّ، استشاط الكافرون غضبًا وقالوا كيف يعيب هؤلاء آلهتنا، وهم عبيد لنا!! هذه الأحداث أخذت تقع في السنة الثالثة من البعثة. لما رأوا رقي الإسلام أخذوا يقولون على الملأ: لقد بلغ

السيل الزبى ولن نطيق أكثر من ذلك، وبدءوا ينفثون حقدهم وشرّهم علنًا. (الطبري: ذكر الخبر عما كان من أمر النبي ﷺ). وكان الله تعالى أنبأ سلفًا عن تصرُّف الكافرين هذا في قوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. لأن من معاني الناصبة قوم ينصبون الأمير والقائد، فأخبر ﷻ المسلمين أنه قد قرُب الوقت الذي سوف يعيّن أهل مكة أمراءً وأسيادًا لمعارضة محمد، وسيبذلون جهدهم لمنع انتشار الإسلام. وطبقًا لهذه النبوءة القرآنية نصب المعارضون رايات المعارضة ونزلوا في الساحة.

كما اختار الله تعالى للإخبار عن المعارضة كلمات تفصّل معالمها ومصيرها النهائي.. حيث قال تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، حيث أشار بقوله ﴿عَامِلَةٌ﴾ إلى المعارضة الفردية، وبقوله ﴿نَاصِبَةٌ﴾ إلى المعارضة الجماعية من قبلهم؛ فأخبر تعالى أن أهل مكة لن يكتفوا الآن بالمعارضة الفردية، بل ستأخذ معارضتهم طابعا جماعيا، وسوف يعيّنون بعضهم أمراء لتنظيم حركة مضايقة المسلمين ومحاربتهم.

ومن معاني (الناصبة) الجماعةُ المرهَقة، وهكذا أشار الله تعالى إلى مصير معارضتهم للنبي ﷺ مبينًا أن أهل مكة لن يدّخروا وُسعًا في هذا السبيل، ولكن لن تسرّهم النتيجة؛ لأن جهودهم المستميتة ستؤدي بهم إلى التعب والإرهاق والأرق.

تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝

شرح الكلمات:

حامية: حميت الشمسُ وحميت النارُ: اشتدّ حرُّهما. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ يعني أن هذه الجماعات المخالفة ستدخل نارا شديدة اللظى؛ ذلك أن ليس كل نار شديدة الحرارة، بل بعضها شديدة الحر وبعضها قليلة الحرارة، حتى إن بعض الناس يدخلونها بأقدام ملطّخة بالوحل ويمرّون

عليها من دون أن يشعروا بحرّها. ولكن الله تعالى يخبر هنا أن النار التي سيدخلها معارضو الإسلام تكون حامية شديدة الحرّ.

التفسير: أي أن هذه المعارضة الفردية أو الجماعية ستؤدي إلى دمار المعارضين فلن ينعموا بالأمن والراحة ولن يجنوا بها عزًا ولن يفلحوا فيما يريدون، بل يدخلون نارا مضطرمة شديدة الحرارة، بمعنى أن المسلمين ينتصرون ويزدهرون، وأن معارضيهم سيبوءون بالفشل في مساعيهم ويحترقون كمدا.

تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

عين: لها معان كثيرة منها: ينبوع الماء، والسحاب. (الأقرب والمنجد)

آنية: أَنى يأني أنْيًا وإِنًى وأَناءً: دنا وقرب وحضَر. وأَنَى الحميمُ: انتهى حرُّه. (الأقرب)

التفسير: يشرب الإنسان الماء إزالةً لعطشه وشفاءً لغليله، ولا يزيل العطش إلا الماء البارد، ولكن الله تعالى يخبر هنا أنهم سيُسقون ماء ساخنا جدًّا.. والماء الساخن جدًّا لا يشربه الإنسان إلا في حالتين؛ في حالة المرض للعلاج، أو في حالة عدم تيسر الماء البارد -لا شك أن الناس يشربون الماء الساخن على شكل شاي، حيث صار له رواج في هذه الأيام، ويطفئون به العطش أيضا، ولكن الشاي غذاء في الحقيقة ولا ينوب عن الماء- فالواقع أن قول الله تعالى هذا إشارة إلى أنهم سيُحرمون من كل راحة، أو أنهم سيُلقون في اختبارات ليعالَجوا من أمراضهم الروحانية، ويُسقون ماء شديد السخونة.. أي أنهم لن ينعموا بالانتعاش والطراوة؛ إذ هذا هو الهدف من شرب الماء؛ ذلك أن الأشياء في الدنيا نوعان: نوع يُنعِش ويُطرّي، ونوع يُسمِن ويُنمّي، والماء يحقق أحد هذين الهدفين، حيث يجلب الطراوة والانتعاش، والغذاء يحقق الهدف الآخر حيث يسدّ الجوع ويسمن الجسم؛ والله

تعالى يخبر هنا أن الكافرين سيظلون محرومين من الاثنين، فلن يجدوا طراوة ولا انتعاشًا، ولن تسمن أجسامهم، أي أن قلوبهم ستذبل كما تذبل أجسامهم أيضًا.

لا شك أن الكافرين سيشربون من عين الماء المغلي في الآخرة، ولكن شربهم من العين الآنية في الدنيا إشارة إلى احتراق قلوبهم بالنار، أي تعرُّضهم للمصاعب والشدائد التي تحرق قلوبهم. ومثال شربهم من العين الآنية في الدنيا إسلام أولادهم، ودخولهم في الدين الذي أراد آباؤهم محوه. لا شك أن قلوبهم كانت تحترق حزنًا وأسًى عندما يروْن أولادهم يدخلون في الإسلام، إذ يروْن عكس ما أرادوا. الهموم تُشَبَّه بالمشروب في العربية، وفي الأردية أيضًا يقال ما معناه: إني أتجرّع الهمّ، ولذلك قال الله تعالى هنا أنهم يُجَرَّعون ماءً مغليا.. أي سيصابون بصدمة كبيرة حين يروْن أولادهم وعبيدهم يدخلون في الإسلام. وقد بين الله تعالى هذا الواقع بكلمات أخرى إذ قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾(الرعد:٤٢).. أي ألا يرى هؤلاء العميان الذين يظنون أنهم سينتصرون على محمد ويمحون دينه ويهزمون أتباعه.. أننا نُضيِّق عليهم الأرض من أطرافها؛ حيث يدخل في الإسلام عبيدهم، ويعتنقه فتيانهم، ولن يبقى بعدهم إلا الشيوخ العجزة الذين يفنون في بضع سنين، فتدخل أجيالهم في الإسلام. الحق أن هؤلاء هم مصدر قوة الأمم، إذ العبيد بمثابة الأيدي، والأبناء بمثابة الأصل، وإذا قُطِعت الأيدي والأصل فلم يبق إلا الجذع الذي يصبح بلا حول ولا قوة.

باختصار، ينبئ الله تعالى هنا عن ازدهار الإسلام ويقول سيُجرَّع الكافرون من عين آنية ويسمعون أخبارًا تشوي أكبادهم. وبالفعل نرى أنه لو انحرف أولاد امرئ عن دينه الذي يؤمن به بصدق القلب لأصابته صدمة شديدة. لا حرج عقليًا من ترك الأولاد دينَ آبائهم، إذ لا إكراه في الدين، فما دام ابن نوح عليه السلام كفر به وخالفه، فيمكن لأولاد الآخرين أن يتركوا دين آبائهم. ومع ذلك إذا انحرف أولاد المرء عن دينه –وهم معقد آماله– صاروا له جرعة مريرة جدًّا لا يستطيع تحمُّلها. كان سهيل بن عمرو يمثّل الكافرين في التفاوض مع النبي ﷺ من أجل وضع شروط صلح الحديبية، وبينما هو في ذلك إذ جاء ابنه أبو جندل يَرْسُفُ في قيوده، فقال: يا

رسول الله، لقد آمنت بك. كان أبوه يصبّ جام غضبه عليه في البيت ضربًا، ويمكنك تصوُّر حالته حين جاءه هذا الابن يَرْسُفُ في قيده، ويقول للرسول ﷺ: لقد آمنتُ بك (سيرة ابن هشام: عليٌّ يكتب شروط الصلح). أرى أنه لم يقدر على الوقوف، وتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه. فترى كم كانت مريرة تلك الجرعة التي تجرعها عند براءة ابنه من دينه علنًا في ذلك الموطن الحرج!

وقد حكيتُ لكم مرارًا قصة أبي جهل أنه لما ضرَبه صبيان أنصاريان بسيوفهما في غزوة بدر قال في آخر لحظاته: ليس عندي أسف غير أني قُتلت بيد صبيين أنصاريين. (البخاري: كتاب المغازي)

باختصار، لقد بيّن الله تعالى هنا أن الكفار سيمرّون بأحوال صعبة بحيث يتجرعون جُرَعًا مرة جدًّا.

لقد قلتُ في البداية أن هذه السورة تتحدث عن فترتَي الإسلام؛ عن صدر الإسلام، وعن هذا العصر. والنبأ المذكور في قوله تعالى ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ عن الكفار قد تحقق في هذا العصر أيضا بكل جلاء. كان المولوي محمد حسين البطالوي من أشد المعارضين للمسيح الموعود عليه السلام، وقد أنفدَ كل عمره في معارضته، وقال مرة بكل زهو: أنا الذي رفعتُ الميرزا، وأنا الذي سأسقطه. (إشاعة السنة، مجلد ١٣ ص ٣،٤). وأنّى له أن يسقط حضرته عليه السلام؟! إنما أصبح بنفسه ذليلا مهانا حتى هرب اثنان من أولاده إليّ في قاديان، وقالا إنهما لا يريدان البقاء عند أبيهما لأنه عديم الغيرة، فهو لا يطعمهما بل يضغط عليهما ليدخلا في دار اليتامى، كما يضربهما ويسخِّرهما في أعمال مهينة. فأجريتُ لهما مرتَّبًا وعلّمتهما في مدرستنا في قاديان. وعندما علِم البطالوي بذلك أرسل إليّ قائلا: أرجوك أن تطردهما من قاديان، لأن في ذلك إهانة كبيرة لي. فقلت له: كيف أطردهما وقد جاءا يطلبان المساعدة مني. ثم دخل الاثنان في جماعتنا، وفي الأخير ضغط عليهما البطالوي ورجع بهما، ومع ذلك لم يحسن معاملتهما، فمات أحدهما، وارتدّ الآخر وتنصّر، وهو لا يزال حيًّا يمارس التجارة في ولاية "ميسوري"، ويقول إنه مسلم أحمدي في قلبه، ولكنه غيّر الدينَ في الظاهر من أجل الرزق.

فانظرْ كم كانت مُرَّةً هذه الجرعة التي تَجرَّعَها البطالوي. كان يزعم أنه هو الذي رفع مؤسسَ الجماعة الإسلامية الأحمدية، وأنه هو الذي سيُسقِطه، ولكن ما حدث هو أن اثنين من أبنائه قد أتيانا يطلبان المساعدة ويشتكيان أنه يضربهما ولا يطعمهما ويضعط عليهما ليدخلا في دار لليتامى لأنه لا يملك شيئا، فساعدْناهما وعلّمناهما في مدرستنا.

وذات مرة رُفعتْ في المحكمة قضية ضد ابن أحد كبار معارضينا، وصادف أن كان القاضي أحمديا، فجاءني مرة وذكر خلال الحديث أن قضية ابن فلان من المعارضين الألداءِ مرفوعةٌ في محكمتي، وهو يبعث إلي أناسًا مرموقين يشفعون عندي بإطلاق سراح ابنه، فماذا أفعل؟ قلت له: إذا كنتَ تستطيع إطلاق سراح ابنه بحسب القانون فلا بد من ذلك، لأنه سيتفكر في أنّ قاضيًا أحمديًا قد أمر بإطلاق سراح ابنه رغم معارضته للأحمدية. وهكذا تمنُّ عليه منّةً عظيمة يخجل بسببها. فإذا استطعت إطلاق سراحه بموجب القانون فافعلْ حتمًا.

كذلك حينما ذهبتُ للحج فإن أحد أخوالي من سكّان "بهوبال" -الذي كان ابنَ أختِ جدّي لأمي- أحدثَ في مكة ضجة كبيرة ضدنا بالتواطؤ مع شخص آخر اسمه خالد الذي كان من بلدته وكان حفيدًا لنَوَّاب جمال الدين خان. فقالوا للناس في مكة إن هؤلاء ينشرون الكفر هنا، وطلبوا من المولوي إبراهيم السيالكوتي - وكان يسمَّى "شيخ أهل الحديث" وجاء أيضًا للحج - أن يناظرنا. وكان غرضهم من هذه المناظرة أن يشيع خبرنا على نطاق واسع، حتى يقتل الناس هذه الحفنة من الأحمديين خلال المناظرة. كما أبلغوا الحكومة لتتخذ إجراءات فورية ضدنا حتى لا تتفاقم هذه الفتنة. ولم نكن نعرف عن مؤامرتهم شيئا. وذات يوم ذهبتُ لتبليغ الشيخ عبد الستار الكبتي وهو أحد العلماء العرب ومعلِّم أولادِ شريف مكة، وكان إنسانًا نبيلا.. كان وهابي العقيدة ولكنه كان يتظاهر أنه حنبليّ، وقد أخبرني ذات يوم عن سبب ذلك وقال: الناس هنا يكرهون أهل الحديث الوهابيين جدًّا، فلا أُظهِر لهم مذهبي. وكان يعلّم أولاد شريف مكة مجّانًا ابتغاء مناصرته له، فلم يكن أحد يجرؤ على إيذائه بسبب مكانته عند شريف مكة. وقمتُ بدعوته إلى

الأحمدية وقتا طويلا. كان مولعًا بالكتب، فذكرتُ له أثناء الحديث اسم كتاب كان الخليفة الأول ﷺ أمرني قبل خروجي للحج بالبحث عنه في البلاد العربية. فقال لي الشيخ: ليس في حوزتي هذا الكتاب، ولكنه موجود في مكتبة بحلب. ولما فرغت من تبليغه قال: لقد قمتَ بتبليغي وكلامك معقول، ولكن خُذْ حذرك لأن الناس في هياج شديد، وأخاف أن يهاجموك ويقتلوك أو تلقيك الحكومة في السجن إذا بلَّغت أحدا. فاستغربتُ من قوله، فقال: ألا تعلم أن البعض أشاع إعلانًا ضدكم فهاج الناس؟ قلت: ومن نشر هذا الإعلان؟ فقال فلان من المشايخ. قلتُ: هذا خالي، ومَن غيره؟ قال: أحد الرؤساء من بهوبال اسمه خالد؛ وقد قالا في الإعلان أن هؤلاء الأحمديين إذا كانوا على يقين بصدق دعواهم فليناظروا الشيخ إبراهيم السيالكوتي.

كان خالي هذا يظن أنه ليس هناك حكومة رسمية في مكة، فلو تمكّنَ من عقد المناظرة فإن الناس سيقتلون هذه الحفنة من الأحمديين وتنتهي هذه المعضلة!

ثم أخبرني الشيخ عبد الستار الكبتي أنه نصح المولوي إبراهيم السيالكوتي أن لا يتحمس فيرتكب خطأ الخوض في المناظرة، لأن الناس لا يعارضون الأحمديين هنا كما يعارضون الوهابيين، ولا ندري أيثور الناس ضد الأحمديين أم لا، ولكن المؤكد أنهم سيثورون ضدك لأنك من الوهابيين. فظني أن الشيخ السيالكوتي لن يخوض المناظرة خوفًا من الناس، أما أنت فأنصحك بعدم تبليغ أحد بالأحمدية كيلا يلحقك ضرر من أحد. فقلتُ للشيخ الكبتي: مَن تخاف عليّ مِنه أكثر؟ فذكر اسم شيخ وقال لا تبلّغه أبدًا. فقلتُ: لقد بلّغته بالأحمدية منذ حوالي ساعة وقد جئتُ من عنده للتوّ. فقال في حيرة: فماذا حصل؟ قلتُ: كان يقول لي مرارًا في حالة من الغضب: لو كان عندي سيف لقطعتُ عنقك.

باختصار، ظلّ خالي وذلك الرئيس البهوبالي يثيران الناس ضدنا ولم يحصل شيء. ولكن ما إن انتهى الحج حتى تفشّى مرض الهيضة الشديدة في مكة، حتى أخذ الناس يلقون موتاهم في الشوارع، إذ لم يجدوا فرصة لدفنهم. فخاف جدي الذي كان يرافقني وقال: يجب أن نرجع من هنا بسرعة. فبدأنا نُعدّ عُدّتنا للعودة.

وذهب جدي للقاء أُخته وابنها في بيتهم، وكنتُ معه، فلما وصلنا هناك رأينا جنازة وأُناسا يُعدّون العدة لدفن الميت، فسأل جدي: من هذا؟ فذكروا اسم خالي الذي كان يثير الناس ضدنا، وقالوا: كان راجعًا من مِنى حين هاجمته الهيضة، فمات بعدها بقليل.

ثم وصلنا إلى جدّة، وكان أحد أقاربنا من جهة أُمي يعمل مسؤولا في القنصلية الإنجليزية هنالك – علمًا أن خالي الذي كان من بهوبال ومات بالهيضة كان من أقارب جدي لأمي، أما هذا المسؤول فكان من أقارب جدتي لأمي، فالغريب أن جميع أقاربي من جهة جدي لأمي كانوا معارضين للأحمدية على العموم، أما أقاربنا من جهة جدتي لأمي فكانوا متعاطفين على العموم، وإن لم يعُد الأمر الآن كما كان في الماضي، وربما كان هذا المسؤول ابن خالة جدتي، فكان يحبنا كثيرا– كانت السفن قليلة والناس يريدون العودة بسرعة، فكان الحصول على التذاكر صعبًا جدًا. فقلنا لقريبنا هذا – المسؤول في القنصلية – أن يدبر لنا التذاكر لنرجع في أول سفينة. فذهب بي إلى مكتب شركة السفن وطلب مني الجلوس هناك، وذهب ليدبّر التذاكر. فجلست في هذا المكتب قريبا من شباك مرتفع جدا بحيث لا تكاد تصله اليد. وبينما أنا في هذه الحالة إذ اقترب من النافذة شاب نحيف طويل أبيض اللون، فظنّ أنني أعمل في الشركة وقال: لماذا أنت جالس هنا؟ قلت: ماذا تعني؟ قال: أعني، أتعمل في هذه الشركة؟ قلتُ: لا. قال: هل لك صلة بهذه الشركة؟ قلت: لا. قال: فلماذا أنت جالس في مكتبها؟ قلت: قد طلب مني أحد أقاربي الجلوس هنا ريثما يدبر التذاكر. قال: تضمّ قافلتنا حوالي ثلاثين رجلا وامرأة ونحن نواجه مصيبة كبيرة، ونحن أشدّ قلقًا على النساء، لأنهن أصبحن كالمجانين خوفًا من وباء الهيضة؛ فلو دبرت لنا ١١ تذكرة، فيمكن أن نخرج النساء من هنا على الأقل، أما الرجال فنرى ماذا يفعل القدر بهم. قلت: وكيف تذهب النساء وحدهن؟ قال: لو دبرتَ لنا ٤ تذاكر أخرى، فيمكن أن نبعث معهن بعض الرجال، ونكون لك من الشاكرين. قلتُ: ليس لي أي علاقة بشراء التذاكر، ومع ذلك سأحاول. فذهب ورجع بسرعة، وناولني كيسًا مليئا بالنقود. وعندما رجع قريـــبي بتذاكرنا قلتُ له:

خالي، إن هؤلاء في حالة تستحق الرحمة، فدَبِّرْ لهم التذاكر أيضًا. وكان خالي في تلك اللحظة غاضبا من شيء، فقال: لستُ وكيل الشركة حتى أبحث عن التذاكر لهم. قلت: الأمر يتعلق بالرحمة بهم، فأرجوك أن تحاول. وإذا كنت لا تريد أن تعمل من أجلهم، فأرجوك أن تعملْ من أجلي. فخرج من عندي متبرّمًا متمتمًا، وظننت أنه لن يستطيع أن يفعل لهم شيئا، ولكنه عاد بعد قليل بحوالي ١٧ تذكرة ووضعها في يدي. فوضعت التذاكر والنقود الباقية في يد ذلك الرجل الذي كان واقفًا بجانب النافذة، فأخذها وذهب. وفي اليوم التالي -على ما أذكر- ذهبتُ لركوب السفينة، وكنت قد تأخرتُ قليلا وكانت السفينة على وشك الإبحار. فلقِيني ذلك الشاب النحيف الهزيل على باب السفينة وقال: لقد تأخرت جدا، إن السفينة على وشك التحرك، ثم حثَّ العمّالَ على مساعدتي وأوصل أمتعتي إلى داخل السفينة. ثم قال لي بكل امتنان: قد أحسنتَ إلينا كثيرا إذ دبّرتَ لنا التذاكر، وإلا كان من المحال أن نركب هذه السفينة. فسألتُه عن اسمه، فقال: اسمي خالد، وأنا حفيد النواب جمال الدين خان. فعلمت أنه هو الشخص الذي أراد قتلي بدفعي إلى المناظرة في مكة. ويمكنك تصوُّرُ مدى ندمه حين علِم من أنا، وكيف عاملتُه وكيف هو عاملني. إنه لم يعارضني بعد ذلك أثناء سفرنا في السفينة، بل ظل يبدي لي الشكر ويصرّ عليّ مرارًا بتناول الطعام وشرب الشاي معه. بل لقد أخبرني بعض أفراد جماعتنا في بهوبال أنه صار على صلة بإخواننا هناك.

إلى مثل هذه المواقف قد أشار الله تعالى في هذه الآيات، فقال سترون مواطن كثيرة يتجرع فيها الكافرون ماءً حميمًا جدا. فيمكنك أن تتصورَ مرارة الجرعة التي تجرّعَها الكفار حين طلبوا من الرسول ﷺ أن يدعو لهم لانتهاء القحط الذي ضربهم، أو حين دخل النبي ﷺ مكة فاتحا وقال لهم: أَخبِروني ما أنا فاعل بكم؟ فقالوا: افعلْ بنا ما فعل يوسف بإخوته. (السيرة الحلبية: ذكر فتح مكة، سيرة ابن هشام: دخول رسولُ الله الحرمَ). لا بد أن ألسنتهم عندها قد جفّت والتصقت بسقف حلوقهم من شدة الذلة والإهانة واعترافًا بغلبة الإسلام.

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٧﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الضريع: نباتٌ رَطْبُه يُسمّى شِبرقًا، ويابِسُه ضريعًا، لا تقرُبه دابّةٌ لِخُبثه. والضريع أيضًا: نباتٌ منتن يرمي به البحر. والضريع أيضًا: يُبْسُ كل شجر. والضريع أيضًا: نبات في الماء الأَجِنِ له عروق لا تصل إلى الأرض. (الأقرب)

التفسير: يقول الزمخشري: المراد من الآية أنهم لن يُعطَوا أي طعام، لأن الضريع ليس طعاما. (الكشاف)

وقد علَّق عليه صاحب "البحر المحيط" تعليقا جميلا فقال: هذا ليس صحيحا، لأن القرآن يقول ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ﴾.. فسواء كان الضريع طعامًا أم لا، إلا أن الذي لا يجد شيئًا للأكل سيأكله لملء بطنه، وإن لم يكن يصلح للأكل في الظروف الطبيعية. فما دام الله تعالى قد قال صراحة بعد ذلك ﴿لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ فلماذا يقال أنهم لن يُعطَوا أي طعام. إن أسلوب القرآن وكلماته تبين أنهم يُعطَوْن الضريع للأكل.. أي أنهم يلقون من الخزي والذلة حتى أنهم يضطرون لأكل ما لا تأكله الحيوانات أيضا، بمعنى أنهم يتعرضون للذلة التي لا يتحملها أحقر إنسان أيضا. وبالفعل فإن عديدا من الكافرين فرّوا عند فتح مكة إلى البراري وماتوا هناك، وبعضهم عادوا إلى مكة بعد معاناة كبيرة طالبين العفو من الرسول ﷺ، فعفا عنهم. (أسد الغابة: عكرمة بن أبي جهل). ولما رأى هؤلاء – الذين كانوا يتباهون بأنهم سيدمرون المسلمين ويسحقونهم ويمحون أثرهم– كيف صار العبيد المسلمون يومَ الفتح حكاما ورؤساء عليهم، فلا شك أن الطعام اللذيذ الشهي أيضا صار لهم أسوأ من الضريع و لم ينفع أجسادهم.

إذًا فليس ضروريا أن يكون الضريع هنا بمعنى كلأ الشبرق حقيقة، بل هو استعارة، لأن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ يشير إلى

تعاسة حالهم وفقدان حواسهم. كانوا يرون كل يوم أن المسلمين ينتصرون، وهم ينهزمون، ويسمعون بعد كل حرب أن فلانًا من قادتهم قد قُتل، وأن فلانا من أسيادهم قد هلك، وكانوا يسمعون كل يوم أن كذا من القبائل قد أسلمت، وأن قومًا كذا قد آمنوا. لا شك أن هذه الأخبار كانت جِدَّ مزعجةٍ ومؤلمة ومؤذية لهم بحيث إن أفضل الأطعمة ما كانت لتُسمن أجسادهم.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ وقوله تعالى ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ يتضمنان نبوءات عظيمة عن ازدهار الإسلام. لقد اعترف الكتّاب المسيحيون أيضا أن هذه السورة نزلت في أوائل الإسلام حين لم يمرّ على دعوى النبي ﷺ سوى ثلاثة أو أربعة أعوام. أفليس إذنْ آيةً بينة عظيمة أن يخبر الله تعالى في تلك الأيام الأُولى من البعثة النبوية أن الكفار سيحاربون المسلمين ساعين لمحو الإسلام على الصعيد الفردي والجماعي، وأنه سيحيق بهم عذاب القحط والمجاعة. فالحق أن قوله تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ كان بمنـــزلة التحدي من قبل الإسلام إلى معارضيه وهو يماثل قول نوح عليه السلام لأعدائه: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾(يونس:٧٢).. فكأن الله تعالى أعلن هنا أنه مهما جمع كفار مكة قواهم ومهما عيّنوا أمراء لمعارضة الإسلام ومهما أعلنوا الحرب ضد المسلمين، إلا أن قادتهم لن يغنوا عنهم شيئا، وجيوشهم لن تنتصر لهم، وأمراءهم لن يرجعوا بالفتح، وخططهم لن تضر بالمسلمين. وبالفعل هذا ما حصل، فمع أنهم كانوا يختارون قادة محنكين في فن القتال إلا أنهم كانوا يرجعون منهزمين من أمام المسلمين في كل مرة. فكّروا في الظروف الحرجة التي أدلى الله تعالى فيها بهذه النبوءة عن ازدهار الإسلام متحديًا أن قادتهم المحنكين أيضا لن يستطيعوا محاربة المسلمين، بَلْهَ عامَّتهم. في الظروف السائدة عندها ما كان بوسع أحد أن يتصور أن المسلمين سيصلّون خارج بيوتهم، بله أن ينالوا الفتح والغلبة، ومع ذلك أنبأ الله تعالى أن المسلمين سينتصرون وأن أعداءهم سيُهزمون ويتجرعون ماء حميما مرة بعد أخرى. وما أدلَّ على ضعف

المسلمين وهوانهم من أن المنافقين كانوا يعيّروهم -حتى زمن غزوة الأحزاب- أنهم يحلمون بالانتصار عليهم وهم لا يجدون مكانًا للتغوط، كما هو مذكور في الحديث وفي القرآن الكريم! علمًا أن نبوءة غلبة المسلمين هذه قد أُدلي بها في السنة الرابعة للبعثة النبوية، واستمر ضعف المسلمين حتى السنة الخامسة من الهجرة كما أشرنا أعلاه، فلا شك أن التنبؤ عن غلبة الإسلام وانتصار المسلمين في ذلك الوقت ليس من عمل إنسان.

باختصار، قد أنبأ الله بقوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ أن طعام الكافرين وشرابهم سيصبح عذابًا لهم وستحلّ بهم من الهموم والمصائب ما يكدِّر عليهم صفو الحياة. وكأن هذا الكلام من قبيل الاستعارة كما قال الشاعر باللغة الأردية:

خون دل پینے کو اور لخت جگر کھانے کو

یہ غذا ملتی ہے لیلی تیرے دیوانے کو

أي دمُ القلب للشرب وفلذة الكبد للأكل.. هذا هو الطعام الذي يجده مجنونك يا ليلى.

فأخبر الله تعالى أن الكافرين سيشربون الماء البارد، ولكنه سيبدو لهم نارا، فلن يستسيغوه، بل سيحرق حلقومهم، مثل الإنسان المصاب بغم شديد، الذي يغصّه الماء الزلال ولا ينـــزل من حلقومه، ومهما أطعمتَه من غذاء جيد شهيّ طيب، إلا أنه لا ينفعه، فيزداد هزالا من شدة الغمّ. فالله تعالى يعلن هنا أنه ستحل بأعداء الإسلام أنواع المحن والبلايا وستتعرض كرامتهم وعائلاتهم وحكومتهم لصنوف الهجمات، فيتجرعون المرارة ويأكلون أفلاذ أكبادهم.. سيشربون الماء البارد ولكنه سيحرق أفواههم، وسيأكلون أشهى الأطعمة وألذّها، ولكنها لن تنفعهم ولن تسمنهم بقدر ما تنفع البعيرَ هشيم الورق وكلأ الشبرق.

ورد في بعض الروايات أنه عند نزول هذه الآية قال الكافرون: ولكنّ إبلنا تسمَن بأكل الضريع. وقال بعض المفسرين تعليقا على ذلك: يبدو أن الضريع كان

طعام الإبل وكان يسمنها. وقال الآخرون: إما أن الكافرين قد كذبوا فيما قالوا، أو أن الله تعالى قد تحدث عن نوع خاص من الضريع مبينًا أنهم سيُعطوْن من الضريع الذي لا يسمنهم ولا يغنيهم من جوع. وكان هذا الضريع يسمن الإبل، ولكن لن يسمن الكفار. (الكشاف، وفتح البيان)

أتعجب من المفسرين كيف خاضوا في هذا النقاش! لو أن الله تعالى قال هنا ليس لإبلهم إلا ضريع، لجاز لهم أن يقولوا: هل الضريع يسمن الإبل أم لا؟ ولكن الله تعالى يتحدث هنا عن الناس لا عن الإبل. فمثلاً لو أن ملِكا جبّارًا أراد عقاب مجرم فأمر بإطعامه التبن، فهل يفرح المجرم وأصدقاؤه قائلين: لا بأس لو أُطعم صديقنا التبن لأنه يُسمِن البقر. الكل يعرف أن التبن يسمن الثور لا الإنسان، ولو قيل عن إنسان أَطعِموه التبن، فليس فيه أي إعزاز له، بل فيه إهانته، ولن يقول أحد أنه أُعطيَ طعاما يسمنه.

عندما زحف السلطان شهاب الدين الغوري بجيشه على الهند فرّ بعض جنوده من أمام الملك الهندي "برتهوي راج"، فأمر الغوريُّ بوضع أكياس مليئة بالحمص وغيره في أعناق الهاربين ليأكلوه. فوُضعت الأكياس على أفواههم إشارةً إلى أنهم يُشبِهون الدوابّ. (تاريخ فرشته /ترجمة أردية/ ج ١ ص٢٢٠)

فهل من عاقل يقول إن هؤلاء الجنود قد فرحوا كثيرا وقالوا فيما بينهم أن الحصان الأصيل والحمار الجيد هو الذي يأكل حبوب الحمص وغيره، فلا بأس لو أطعمَنا الملِكُ إياها؟

فلا أدري لماذا خاض المفسرون في هذا البحث عن الضريع. إن نقاشهم فيما إذا كان الضريع ينفع الإبل أم لا عبثٌ. فقد قال أهل اللغة إن الضريع نبات خبيث تعافه الدواب ولا تقرب منه. ثم حتى ولو افترضنا أن الدابة تأكله وافترضنا أن أهل مكة قالوا هذا فعلاً فإن هذا دليل على أنهم كالدواب. إذ لو قيل لإنسان لن تعطى إلا طعام الدواب، فلن يفرح بذلك قائلا: لا بأس أَعطوني إياه لأنه يسمن الدوابّ! فخوض المفسرين في البحث فيما إذا كان الضريع يسمن الإبل أم لا عبثٌ. لقد قال القرآن الكريم إن الكفار كأمثال أبي جهل وعتبة وشيبة وغيرهم سيُعطون الضريع،

ولم يقل إن الإبل ستعطى الضريع، حتى يخوض المفسرون فيما إذا كان الضريع يسمن الإبل أم لا. لو حلّ أحد كنّاسي المراحيض مثلاً على أحد ضيفًا، فقدّم له التبن أو الكلأ الطازج الذي يسمن الثور والبقر، فلن يفرح بذلك أبدًا، بل يعتبره إساءة شديدة له، والله تعالى يتحدث هنا عن الناس، فما معنى الخوض في البحث فيما إذا كان الضريع يسمن الإبل أم لا؟ إني أقول لهؤلاء المفسرين بكل احترام إن الحديث هنا عن الناس لا عن الدواب، وإذا كان أهل مكة قد قالوا مثل هذا الكلام فعلاً، فلا شك أنهم أكّدوا أنهم دواب، ولا حاجة للرد على قولهم هذا.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٩﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

ناعمة: نَعِمَ الرجلُ: رَفِهَ. ونَعِمَ عيشُه: طابَ ولانَ واتّسعَ. (الأقرب)

وقال صاحب "البحر المحيط": "ناعمةٌ: لحُسنها ونضارتها، أو متنعّمةٌ."

التفسير: تحدثت الآيات السابقة عن وجوهٍ صفتُها ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.. بمعنى أن الذين عارضوا المصطفى ﷺ، أو الذين كانوا سيعارضون المأمورين فيما بعد، سيعملون كثيرا على الصعيدين الفردي والجماعي ويرهقون أنفسهم بجهود مضنية، أما هذه الآية فبيّنت أن رسول الله ﷺ لن يخضع ولن يظل وحيدا بسبب معارضتهم الفردية والجماعية، لأن جماعته ستزداد وتنتشر وتفوز بالعز والنجاح، كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾.

لقد سُمي رؤساء الكفار وجوهًا إذ كانوا بالفعل وجوه القوم في البداية، أما كلمة (خاشعة) فتشير إلى مصيرهم، لأن الذين يذلّون في أعين الناس ويفقدون نفوذهم وتأثيرهم وتَحرِقهم نيران الهمّ والألم.. لا يعودون وجوهًا. أما المسلمون فسُمّوا (وجوهًا) نظرًا إلى عاقبتهم. وكأن الله تعالى قد نبّه هنا: إنما العمل الحسن ما يكون مآله حسنًا. لقد هبّ الكافرون وهم وجوه، ثم عادوا وجوهًا خاشعة، أما

المؤمنون فنهضوا من الحضيض وأصبحوا وجوهًا، حيث نالوا كلّ نوع من العز والشرف والدرجة.

ويمكن أن ترى مآل الكفار وعاقبة المؤمنين من أمثال أبي جهل وأبي بكر ﷺ. فكان الأول ذا جاه وعز، ولكن انظرْ إلى مصيره التعيس حيث قتَله يوم بدر صبيان أنصاريان لم يتجاوزا الخامسة عشرة من عمرهما. (البخاري: كتاب المغازي). أما أبو بكر فكان تاجرًا بسيطًا من مكة، ولما توفي النبي ﷺ بايعه المسلمون خليفةً له واختاروه سيدًا عليهم. فبلغ خبر ذلك مكةَ في مجلس ضمّ والدَ أبي بكر أيضا. فقال قائل: لقد بلغنا من المدينة أن النبي ﷺ قد توفي. فقيل له: فماذا حدث بعد ذلك؟ قال: قد اختار المسلمون خليفةً منهم وبايعوا على يده. قالوا: من الذي بايعوه؟ قال: أبو بكر. فلما سمِع والدُ أبي بكر هذا الكلام سأل: من يكون أبو بكر هذا؟ وهذا يعني أنه لم يخطر بباله أن الناس يمكن أن يختاروا ابنه سيدًا عليهم. فقيل له: ابن أبي قحافة، أي ابنك أنت. فبدأ والد أبي بكر يسمي القبائل والأُسَر واحدة بعد أخرى ويسأل: هل بايع هؤلاء على يده؟ فقيل له: نعم. فلم يتمالك نفسه حتى قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (الطبقات لابن سعد، ذكر بيعة أبي بكر). الواقع أنه كان قد أسلم من قبل، و لم ينطق بالشهادتين في هذه المناسبة إلا لإيمانه بأن حادث خلافة ابنه أيضا دليل على صدق الإسلام، وإلا فما كانت قبائل العرب لتبايع على يد ابنه.

فترى أن شخصًا يبلغ الذروة نتيجة إسلامه حتى لا يصدّق أبوه ما حققه من الرقي، مع أن تقديرات الآباء عن أبنائهم كبيرة عادةً، فكثير من الناس يقولون: إن ولدي ذكيٌّ جدا، وإذا سألته عن دليل ذلك، قال إنه يقرأ الكتاب بطلاقة. فقراءة كتاب بسيط دليلٌ على العلم والذكاء في رأيه، وإنْ كان الكتاب مجموعةَ شعر بسيط، أو إنْ لم يكن يقرأه بطلاقة. كان المفروض بحسب هذا المبدأ أن يكون أبو بكر عظيمًا في عين أبيه، ولكن أباه لم يصدق أن المسلمين قد بايعوه خليفة للرسول ﷺ.

إذن، لقد أصبح أبو جهل صغيرا بعد أن كان كبيرا، وصار أبو بكر كبيرا بعد أن كان صغيرا. وبهذا المعنى نفسه قد أوحي إلى المسيح الموعود عليه السلام: "كم من صغير سيُجعل كبيرا وكم من كبير سيُجعل صغيرا" (التذكرة ص٤٥٣). فأحد الرجُلين اعتُبر من الوجوه، نظرًا إلى بدايته، والآخر نظرًا إلى نهايته، وإلا فلا يمكن أن يكونا سيدين لبلد واحد؛ لأن بينهما عداء. فالله تعالى يقول هنا للذين يعادون محمدا ﷺ، لا شك أنكم وجوه اليوم، ولكنكم ستصبحون وجوهًا خاشعة غدًا، ولا شكّ أن المسلمين ضعفاء اليوم، ولكنهم سيصبحون وجوهًا غدًا.

ثم ذكر الله تعالى من صفات هذه الوجوه أنها ﴿ناعمة﴾، أي أن المسلمين يصبحون وجوهًا ناعمة. وللناعمة مفهومان: الأول ذات حسن ونضارة، والثاني: المتنعمة.. أي المترفلة بالنِّعَم.. والمراد أن المسلمين يحوزون الكمال في أنفسهم وفيما حولهم.. أي ينعمون بالنعم الداخلية والخارجية. المفهوم الظاهري أنهم ذوو جمال وأموال، والمفهوم الروحاني أنهم ذوو تقوى وعلوم روحانية؛ بتعبير آخر: إنهم يتحلون بعرفانٍ وغنًى كاملَيْن، كما يملكون معارف وأموالا يوزّعونها على الآخرين أيضا، ذلك أن الحُسْن شيء ذاتي يخصّ ذات الإنسان فقط، أما المال فيتمتع به، كما يعطيه للآخرين. كذلك التقوى تخصّ ذات الإنسان ولا يمكن أن يوزعها للآخرين، أما العلم فيمكن توزيعه على الآخرين أيضا. فالله تعالى يخبر أن المسلمين سيحوزون الجمال والمال ظاهرًا، ويتحلون بالتقوى والعلم باطنًا.

اعلم أن المفهوم الظاهري لقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ هو أنهم في ذلك اليوم سيَبدون ذوي حسن وجمال. وفهمُ هذا التعبير صعب، إذ كيف يبدو الإنسان جميلا في وقت خاص إذا لم يكن جميلا في الواقع؟ ولكن الحقيقة أن الذي تحبّه يبدو لك جميلا جدًّا. وهذا ما تشير إليه الآية، أنهم بسبب تقواهم وإحسانهم يصبحون محبوبين عند الناس، ومهما كانت صورتهم فيجدهم الناس ذوي حسن وجمال، كما يرى كل أب ابنه جميلا، وكل ابنٍ يرى أباه جميلا.

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه قبل إسلامه عدوًّا شديدا للإسلام، فأصيب بقلق شديد قبيلَ وفاته وكان يقول: بأي وجه ألقى ربي؟ فقال له ابنه: ما هذا الذي

تقوله يا أبي؟ فقد قدّمتَ خدمات جليلة في عهد الرسول ﷺ. فقال: نعم، لا شك أن الله تعالى قد وفّقنا لخدمات عظيمة في عهده ﷺ، ولكني أخاف بسبب ما مرّ بنا بعده من أحوال، فلا أدري كيف يعاملنا الله تعالى! ثم قال: ولو سُئلت أن أصِفه ﷺ ما أطقْتُ. فقد أتى عليَّ فترتان، فترة أعلن فيها النبي ﷺ دعواه، فكرهتُ دعواه كراهية شديدة، فلم أكنْ أملأ عيني منه. لم يكن لي به معرفة كبيرة من قبل حتى أعرف صورته جيدا.. أما بعد الدعوى فكنتُ أغضّ الطرف عنه إذا ما رأيته قادما، حتى لا أرى وجهه، وفترة أخرى حين أنعم الله عليّ بنعمة الإيمان، فرأيت في وجهه حسنًا وجمالا ونورا وجلالا لم أجرؤ معها على النظر إلى وجهه ﷺ، ولذلك لو سألني أحد أن أصفه ﷺ لم أستطع؛ إذ لم أطق النظر إليه في حالة الكفر لكونه أبغض الناس عندي، ولا في حالة الإيمان لكونه أجمل الناس وأجلّهم في نظري. (مسلم، كتاب الإيمان)

فالحقيقة أن المرء يرى الشيء جميلا في حين، ويراه دميما في حين آخر. وتتغير الصور بناءً على نظرة الحب أو البغض. لقد شاهدنا في عشرات الخلافات الزوجية أن كلا من الزوجين ينظر إلى الآخر كالعاشق الولهان في بداية الأمر، فيظن الزوج أن الله تعالى قد أعطاه أجمل امرأة في الدنيا، أما بعد النـــزاع فيقول: إنها كريهة الشكل بحيث لا أطيق النظر إلى وجهها.

إذًا، فبناء على المعنى الظاهري لكلمة ﴿ناعمة﴾ فالمراد من قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ أنهم سيصبحون يومئذ مقبولين في العالم، وذوي جمال في أعين الناس. ليس ضروريا أن تكون وجوههم جميلة، بل تراهم الدنيا أجمل الناس لكونهم محسنين خادمين للإنسانية، مشفقين على اليتامى، ومساعدين للفقراء، ناهضين بالمنكوبين. فالمعنى الظاهري أيضا مستقيم، ولكن هذا لا يعني أن تكون صورهم جميلة حسنة فعلاً، بل هذا أسلوب للكلام كقولنا: الميزاب يجري، مع أن المراد أن الماء يجري في الميزاب. كذلك المراد هنا أنهم يَبدون للناس أهلَ حسن وجمال لإحسانهم إليهم؛ فيحبهم الناس حبًّا جمًّا لما يتمتعون به من خصال حميدة كالإحسان والصلاح والعفة وحسن المعاملة.

إذًا، فقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ إشارةٌ إلى حُسن أخلاق الصحابة أو المؤمنين.. أي أن الله تعالى سيوفّقهم للتحلي بأسمى الأخلاق والإحسان إلى الخَلق، فيبدون في أعين الدنيا أجمل الناس في العالم.

أما إذا أخذنا بالمعنى الروحاني.. أي التقوى والعلم، فالمفهوم واضح ولا حاجة لشرحه.

لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿١٠﴾

التفسير: في بعض الأحيان يحسن المرء إلى الآخرين وهو مستاء. ومثاله المرائي، فإنه يتبرع بالملايين في مشروع خيري أحيانًا، ويثني عليه الناس ويشيدون بتضحيته، بينما يدمى قلبُه بما فعل؛ أو أنه يتصدق على الفقراء فيثني عليه القوم، ولكنه في باطنه يكون قلقًا جدًّا لضياع ماله. فلا يكفي الإنسان أن يكون جميلا ومحمودًا في أعين الناس، بل لا بد أن يكون حَسينا ومحمودا في عينه هو أيضا، لأن المرائي أيضا يصبح حَسينًا في أعين الناس، ولكن قلبه يحترق لإدراكه أنه قد هلك بريائه. ولذلك يقول الله تعالى أن هؤلاء سيكونون كاملي الصلاح دون نقص ولا عيب.

والمفهوم الروحاني لقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أنه سيأتي يوم يصبح فيه بعض الناس ذوي جمال في أعين العالم وفي أعينهم أيضا.. أي أنهم سيفرحون بما صنعوا، ولن يكون عندهم أدنى إحساس أنهم قد ظلموا أنفسهم بتقديم التضحيات من أجل بني قومهم، بل كلما ازدادوا خدمة وتضحية وإحسانًا إلى الناس ازدادت قلوبهم اطمئنانا وسرورا؛ وبتعبير آخر: تكون قلوبهم عامرة بالإيمان والإخلاص وحب الله بحيث لن يفرح الناس برؤيتهم فحسب، بل إنهم أنفسهم يفرحون بما فعلوا. وهذا يماثل قولنا: لو وجدتُ الفرصة فلأفعلنَّ ما فعلتُ مرة أخرى، أو لأُعيدنَّ العمل نفسه. ذلك أن المرء يقوم أحيانًا بعمل يندم عليه ويحزن فلا يزال ضميره يخزه. فلو قيل له هل أنت مطمئن بما فعلتَ؟ فكثيرًا ما يجيب: كلا، بل إني نادم على ما فعلت، وإني أعترف أنني لم أحسن صنعًا. أما إذا

كان مطمئنا بفعله وصادقا فيما يقول بعد ذلك، فهو يقول: لو أتيحت لي الفرصة فسأعمل ما عملتُ ثانية، أي أنه مطمئن جدا بما فعل ويريد أن يعيد العمل نفسه لو أتيحت له الظروف.

إن كل عمل في الدنيا يُرى من منظورين: يُنظَر إليه من منظور الماضي إلى الاستقبال حينًا، ومن منظور الحال إلى الماضي حينًا آخر. فبعض الأعمال تبدو لنا جميلة إذا نظرنا إليها من الماضي إلى المستقبل، وعندما نقوم بها ويصبح المستقبل ماضيا، ثم ننظر إليها نعُدّها سيئة بسبب نتائجها. ولكن هناك أعمال إذا نظرنا إليها من منظور الماضي إلى المستقبل تبدو لنا جميلة، وعندما تصبح تلك الأعمال قصة من الماضي وتنكشف نتائجها فتبدو لنا جميلة من حيث نتائجها أيضًا. علامة العمل الحسن السامي أنه يبدو جميلا سواء نظرت إليه من الماضي إلى المستقبل أو من الحال إلى الماضي، وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.. أي أن المسلمين عندما ينظرون إلى أعمالهم التي يريدون القيام بها من منظور الماضي إلى المستقبل فيستحسنونها، وعندما ينجزونها وينظرون إليها من منظور الحال إلى الماضي فسيعتبرونها جميلة أيضًا، وكأنما يرون الحسن من أمامهم ومن ورائهم أيضا. إن المشتري الذكي إذا أراد شراء فرس، نظر إليه من أمامه ومن ورائه أيضا، لأن بعض الدواب تبدو جميلة من الأمام، وهي ليست كذلك من الوراء، وبعضها تبدو جميلة من الوراء ودميمة من الأمام، وأفضلها ما يبدو جميلا من أمامه ومن ورائه أيضا. وهذا هو حال أعمال الإنسان أيضا؛ فبعض الأعمال تبدو جميلة قبل القيام بها وبعده، وبعضها تبدو جميلةً قبل القيام بها، وبغيضةً فيما بعد، وبعض الأعمال تبدو سيئةً قبل القيام بها، ولكنها تبدو جميلة فيما بعد. والعمل الذي يبدو جميلا قبل أن تعمله وبعد أن تعمله هو الأحق بالإشادة والتقدير. كما ورد في الحديث أن صحابيا استُشهد في غزوة، فقال الله له مسرورًا: سَلْ ما بدا لك، فإني أعطيك كل ما تسألني. ولو أن هذا الصحابي لم يُضَحِّ بنفسه في سبيل الله على وجه البصيرة لأجاب: ربّ، قد اشتركتُ في القتال جهلاً مني وقُتلتُ، فأريد أن تحييني ثانية لأعود إلى أهلي. ولكنه لم يقُلْ هكذا، لأنه عندما كان ينظر إلى الشهادة من منظور

المستقبل كان يستحسنها، وعندما استُشهد فعلاً ونظر إلى الماضي وإلى نتائج الشهادة استحسن عمله، ولذلك قال لربه: ربِّ، أريد أن تحييني لأُقتل في سبيلك ثانية (الترمذي، أبواب التفسير).

فثبت أن الحُسن الحقيقي لأي عمل لا يظهر إلا بالنظر إليه قبل القيام به وبعد إنجازه، وإلى ذلك يشير الله بقوله تعالى ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.. أي أن الناس سيجدون فيهم حسنًا وجمالاً، كما أنهم يجدون في أنفسهم حسنًا وجمالا، ولا يستنكرون أعمالهم بعد القيام بها؛ كلا، بل يستحسنون أعمالهم قبل القيام بها، ويجدونها جميلة بعد القيام بها أيضا. وليس المراد من اعتبارهم أنفسَهم من ذوي الجمال أنهم يصابون بالكبر والزهو كما هو حال بعض الجهلاء الذين يزعمون أنه ليس لهم مثيل في الدنيا كلها، فإنها فكرة سيئة جدا تدل على مرض قلوب أصحابها، إنما المراد من هذا التعبير أنهم سيستحسنون أعمالهم بعد التدبر فيها وبعد رؤية نتائجها. وهذا المقام مقام الكمال في الإيمان.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١١﴾

التفسير: أي أنهم حين يصبحون ذوي جمال في أعين القوم وفي أعين أنفسهم أيضا، ويستحسنون أعمالهم ويطمئنون بها، سواء بالنظر إليها من الماضي إلى الاستقبال أو بالعكس، فلا بد أن يصيروا مَرضيّين عند الناس وعند أنفسهم، بل يصح القول إنهم يكونون مرضيين عند الله وعند الناس وعند أنفسهم أيضا، حيث إن كل حمْد إنما يأتي من عند الله في الواقع. وهذه هي الجوانب الثلاثة لأعمال الإنسان، أي معاملته مع نفسه ومع بني جنسه ومع الله تعالى، فهؤلاء سيكونون مرضيين في أعينهم، وعند الناس وعند الله أيضا. وإذا تيسر للمرء الرضا من الجهات الثلاث كلها، فأي شك في أنه يكون ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، حيث يُكرمه الناس ويضعونه على الرأس والعين، وإنْ كان مفلسًا لا يملك قرشًا ويعيش في أسمال؟ إنه

يعتبر نفسه عاليًا غير دنيء، مُدركًا أن الله تعالى قد وهب له مكانة عالية من حيث الأخلاق و لم يجعله من زمرة الأداني، كما ألقى في قلوب الناس حبه وتكريمه.

لعل مفهوم ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ لم يكن واضحًا في الماضي، ولكنه أصبح سهل الفهم في هذه الأيام لوجود البساتين المعلقة في الدنيا. حيث توجد في مومباي عدة بساتين معلقة. زرتُ مومباي مرة في مقتبل عمري، فأُخبرتُ بوجود البساتين المعلقة هناك، فظننت أنهم ربما زرعوا الأشجار في سلال وعلّقوها على أعمدة عالية أو صخور ناتئة، فتتدلى منها الأشجار وتبدو معلقة في الهواء. ولما ذهبت لزيارتها لم أجد هناك أي بستان معلق هكذا، فقلتُ للبعض: لقد قيل لي إن هنا بساتين معلقة، ولكني لم أرَ منها شيئا، فقيل لي: قد رأيتَها قبل قليل. فعرفتُ أنهم لا يعنون بها أية بساتين معلقة، وإنما يعنون بها البساتين المزروعة على قمم عالية.. ولأن الناس يمرّون من تحتها فتبدو بساتين معلقة من فوقهم. كذلك يقول الله تعالى هنا إن المؤمنين سيكونون في بساتين مرتفعة حيث ﴿جنة﴾ تعني بستانا ذا ظلّ، و﴿عالية﴾ تعني مرتفعة. وحيث إن الشيء المُظِلّ لا يُرى ما تحته من أشياء، بينما يكون الشيء الموجود على القمة معرَّضًا للشمس، فلذلك قد أوضح الله تعالى هنا أن البساتين التي نتحدث عنها هنا ذات ميزتين؛ ففيما يتعلق بالصيت والمكانة فهي عالية، وفيما يتعلق بالمحاسن فهي ذات ظلال، أي أن الناس سوف يرفعون أبصارهم إلى هؤلاء المؤمنين، كما أنهم لن يتعرضوا للشمس وحرارتها، بل سيعيشون تحت ظل رحمة الله تعالى، مع أن أكثر الناس حينما ينالون مرتبة عالية يصيبهم الغرور فيُفْتَضحون، وبدلاً من أن تنفعهم شمسُ الأفضال الإلهية يحترقون بحرارتها.

لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

لاغية: اللاغية: اللغو؛ كلمةٌ لاغية: أي فاحشة، ومنه ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي: كلمةٌ ذاتُ لغوٍ. (الأقرب)

التفسير: يسمَع الإنسانُ اللغوَ في الدنيا في حالتين: إما أن يكون ذا خُلق سيّئ، فيخاصم الناسَ فيسمَع كلمةً لاغيةً بكل تأكيد؛ فمثلاً إذ سبّ الآخرَ ووصَفه بالخبث، وقعتْ في أذنه كلمته اللاغية حيث سمع قوله بنفسه أيضا، والحالة الثانية أن يخاصمه الناس، فيسمع منهم لاغية. والمرء يسمع لغوه عندما لا يكون راضيا بالآخرين، ويُسمعه الآخرون لغوًا حين لا يكونون راضين عنه. ولكن الله تعالى يصف هؤلاء القوم أنهم لن يسمعوا فيها لاغية.. أي أنهم سيكونون راضين عن الناس ويكون الناس راضين عنهم: سيتحلون بالرحمة والمواساة والستر وحسن المعاملة والمحبة والإخلاص، فلن يخاصموا الآخرين ولن يسبّوهم؛ وذلك كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه لم يكُن سبّابًا ولا فحّاشًا ولا لعّانًا (البخاري: كتاب الأدب). إذا كان المرء سيئ الخُلق عصبيًّا أو بخيلاً أو عنيدًا، خاصمَ الناسَ وسبّهم. وبالفعل نجد أناسًا لو ذهب إليهم أحد لبعض حاجاته صرخوا في وجهه قائلين: لِمَ يُلاحقنا هؤلاء الأشقياء دومًا ولا يتركوننا في أي وقت؟ أما السخي الكريم المحسن المحب للناس، فلا يسمع اللغو من لسانه هو، وإذا صار كاملا في إحسانه ونال القوة والغلبة أيضا فلا يسمع لاغيةً من الآخرين أيضا.

الحقيقة أن قوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إشارة إلى غلبة المؤمنين وقوتهم؛ ذلك لأن في الدنيا لئامًا لا يكفّون عن سبّك مهما أحسنتَ إليهم. انظُروا إلى جماعتنا مثلاً، فكم نحسن إلى الناس، ونسعى لخيرهم، ومع ذلك نسمع منهم السبّ أكثر مِن أي أحد. فبعض الناس خبثاء لا يتورعون عن الإيذاء كالعقرب التي تلدغ دائما. يبلغ بهم السوء نتيجة إغواء الشيطان بحيث لا يميزون بين ما هو خير لهم وما هو شر لهم، ويبذلون جهدهم لمعارضة الرسالة الإلهية مهما أحبّهم صاحب الرسالة وواساهم، ولكن حين تنال جماعة الله الحُكم والغلبة، فإن هؤلاء يتذللون أمام المؤمنين.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إشارة إلى حكم المسلمين، حيث بين الله تعالى أنهم سينالون الغلبة فلن يجرؤ أحد على أن يقول لهم كلمة لاغية.

كما أن قوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إشارةٌ إلى سموّ أخلاق المسلمين. لقد بينت من قبل أن قوله تعالى ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ كان إشارةً إلى ثلاثة أمور: معاملتهم مع أنفسهم، ومعاملتهم مع بني جنسهم، ومعاملتهم مع الله تعالى، حيث أخبر الله تعالى أنهم سيكونون كاملين من هذه النواحي الثلاث، أما الآن فأشار بقوله تعالى ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ إلى حسن أخلاقهم، وأنهم لن يكونوا بخلاء طمّاعين بحيث يسبون الناس إذا جاءوهم طالبين منهم معروفا، أو أنهم لن يكونوا عصبيين، بل يكونون محسنين مُنعمين معلِّمين بحيث يمدَحهم الناس. أما اللئيم الذي يخاصمك سواء أحسنتَ إليه أم لم تُحسنْ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾(الأعراف:١٧٧).. فهو يضايق الشريفَ كالكلب الذي يلهث دائما، ولا يتوقف عن فحش الكلام إلا إذا نال خصمُه الحكمَ والغلبة، لذلك يقول الله هنا إن المسلمين سينالون الغلبة فلن يقدر أحد أن يُسمعهم لاغيةً، وهكذا سيثني عليهم هؤلاء الأعداءُ الذين ينكرون الجميل بسبب غلبتهم، أما الشرفاء فيُثنون عليهم لإحسانهم. أما هؤلاء المؤمنون فلكونهم صالحين فلا يسبّون أحدا، وبالتالي لن يسمعوا اللغو إطلاقا.

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٣﴾

التفسير: أي ستكون في الجنّة التي يسكنها المؤمنون عين جارية. لا شك أن هذه العيون ستكون في الآخرة، ولا داعي للخوض في تفاصيلها، إذ لم أرَها ولم يرَها غيري، وإنما هي قضية إيمانية. وستعني هذه الآية نظرًا إلى حياة الدنيا أنهم سيتركون وراءهم علومًا، ويعاملون بني جنسهم بأخلاق يبقى تأثيرها لمدة طويلة. إن إحسان بعض الناس يكون مؤقتا، ولكن إحسان البعض الآخر يصبح صدقة

جارية. فمثلا تعطي الفقير بعض المال، وبمجرد أن يشتري به خبزا أو طعاما ويأكله ينتهي إحسانك، ولكنك لو علّمت الناس الدين أو الخُلق العالي، أو علّمت أحدًا حرفةً، وساعدته بالمال ليمارس حرفته، أو اشتريت له أدوات صنْعته، فهذا إحسان ذو نطاق واسع، لأن إطعام طعامٍ صدقةٌ تنتهي بسرعة، ولكن الإحسان ذا النفع الطويل المدى صدقة جارية. فالمراد من قوله تعالى ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أن صدقاتهم تكون صدقات جارية، وأن معروفهم ببني جنسهم لا يكون محدودًا أو بسيطًا، بل يكون واسع النطاق وطويل المدى. فمثلاً تعلَّمَ الصحابة العلمَ من النبيّ ﷺ، فنشروه في الدنيا حتى وصل عن فلان وعن فلان وفلان إلى الأجيال القادمة، ثم نقله الذين يلونهم ثم الذين يلونهم إلى من بعدهم، حتى وصلت هذه العلوم كلها إلينا. لقد جعل الله تعالى هذه الميزة في الصحابة على خير وجه، فكانوا لا يحتفظون بكنوز العلم لأنفسهم، بل كانوا يبلغونها الآخرين كعيْن جارية. لو كان عند البعض علمٌ أخفوه لأنفسهم، أما الصحابة فقد فعلوا عكس ذلك، حتى روي أن شخصا سأل أحد الصحابة عن حديث لرسول الله ﷺ، فقال: لا علم لي به، ولو كنتُ أعلمه والسيفُ موضوع على عنقي، لسارعتُ إلى تبليغه قبل قتلي، وقلتُ: هذا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ (البخاري: كتاب العلم). إذًا فكان الصحابة عينًا جارية لا يعرفون التوقف، بل كانوا يركضون بعلومهم في العالم.

كما أخبر الله تعالى بقوله ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أن الصحابة وتلاميذهم يخرجون إلى مناطق نائية، ولن يظلّوا متقوقعين في الجزيرة. وبالفعل ترى أن العرب المسلمين خرجوا من وطنهم وانتشروا في أقطار بعيدة في العالم حتى بلغوا الصين ونشروا فيها الإسلام، ووصلوا إلى أنطاكية وأشاعوا فيها الإسلام، ودخلوا في إسبانيا وبشّروا أهلها بالإسلام. لقد خرجوا إلى شتى أنحاء الدنيا وأجروا فيها العلمَ أنهارا وعيونًا. فكما أن ماء العين يروي أراضي بعيدة، كذلك لم يتوقف المسلمون في مكان واحد، بل كانوا يصلون إلى شتى أنحاء العالم لينفعوا أهلها بعلومهم.

هذه هي ميزات الأمم التي يكتب لها الغلبة. على جماعتنا أن تفكّر فيما إذا كنا متحلين بهذه الميزات أم لا. دَعُوا الحُكمَ جانبًا فإن الله سيكتبه لنا في وقته، ولكن

قبلها حاسِبوا أنفسكم لتروا ما إذا كنا متحلين بهذه المحاسن، وهل تخلصنا من أنواع النقائص في أعيننا وأعين الناس وعند الله أيضا؟ هل نتحلى بأخلاق فاضلة بحيث لا نسمع لاغيةً لا مِن لساننا ولا من لسان الآخرين؟ وهل نسعى دومًا لنكون كعين جارية، حتى إذا سمعنا من أحد شيئًا حسنًا بلّغناه الآخرين بدلاً من أن نكتفي بسماعه ونكيل لقائله المدائح! كان الصحابة يتعلمون ليل نهار، ثم لا يحتفظون بما تعلّموه في صدورهم، بل كانوا يبلّغونه غيرهم كعين جارية تروي العالم. انظروا كم كان ذلك الصحابي تواقًا لتعليم الآخرين حيث قال: لو وُضع السيف على عنقي، فتكون آخر أمنيتي أن أروي قبل قتلي ما سمعتُه من قول رسول الله ﷺ. ينبغي أن تتحلى جماعتنا بهذه الميزة، ويُثبِتوا بعملهم أنهم عين جارية فيما يتعلق بالعلوم والمعارف.

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

سُرُر: جمعُ سرير، ويُجمَع أيضًا أَسِرَّة. وهو التخت ويغلِب على تخت المَلِك. يقال: زالَ عن سريره: أي ذهَب عزُّه ونعمتُه، سُمّي به لأن من جلَس عليه مِن أهل الرفعة والجاه يكون مسرورا. (الأقرب)

مرفوعة: رَفَعَه ضِدُّ وَضَعَه. (الأقرب)

التفسير: من معاني ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ أنها تكون عظيمة، لأن كلمة مرفوعة تشير إلى علوّ الشأن والعظمة، كما تعني أيضا أنها تكون في مكان مرتفع. ففيها ميزتان: ميزة العظمة وميزة الارتفاع. وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين سوف يتقدمون في فعل الخيرات ويسعون ليكونوا أطولَ قامة من غيرهم في مجال الحسنات، كما أنهم يكونون مرفوعين من حيث إن الله تعالى سوف يرفع درجاتهم. وكأنه تعالى يقول فيما يتعلق بعلاقتهم مع الناس فإنهم يكونون أطول قامة من

غيرهم في الصلاح والتقوى، بحيث لا مجال للمقارنة بينهم وبين غيرهم، وفيما يتعلق بعلاقتهم مع الله تعالى فإنه سيعاملهم معاملة خاصة دون غيرهم، ويجعلهم من المقربين.

أما قوله تعالى ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ فإشارة إلى أن المُلك الذي سيُعطاه المؤمنون لن يكون كمُلك أهل الدنيا، بل سيكون فريدًا من نوعه، حيث يكون لهم ﴿سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾.. أي تكون أَسِرَّتهم في السماء.

وبالفعل نرى أن المسلمين أصبحوا ملوك العالم، ولكن لم يجلبوا من مُلكهم منفعة شخصية. كان أبو بكر ملكًا للعالم الإسلامي كله، ولكن ماذا أخذ من مُلكه؟ كان محافظًا على بيت المال، ولكنه لم يتصرّف فيه لنفسه قط. لا شك أنه كان تاجرًا كبيرا قبل خلافته، ولكن كلما أتاه مال أنفقه في سبيل الله تعالى، فلم يكن عنده مال حين صار خليفة بعد وفاة النبي ﷺ، فخرج في اليوم الثاني من خلافته حاملا رزمة من القماش ليبيعها للناس، فلقيه عمر في الطريق وقال: ما هذا الذي تفعله؟ قال: من أين آكل إذا لم أُتاجر؟ فقال عمر: فمن ذا الذي يقوم بمهامّ الخلافة إذا اشتغلتَ بالتجارة؟ قال: فمن أين أعيش؟ قال عمر: يجب أن تأخذ مرتّبًا من بيت المال. قال: لن أفعل هذا أبدًا، إذ لا حق لي في بيت المال. فقال عمر: ما دام القرآن قد أجاز الإنفاق من بيت المال على خدام الدين، فلماذا لا تأخذ منه؟ فعُيّن لأبي بكر ﷺ راتب قليل جدًا من بيت المال لا يكفي إلا للأكل واللباس (الطبقات لابن سعد: ذكر بيعة أبي بكر). ثم لما انتُخب عمر ﷺ خليفةً عاش عيشة بسيطة جدًّا. أما عثمان ﷺ فهو الوحيد الذي كان ثريًا بين الخلفاء الراشدين، ولكنه كان جوادًا، فكان ينفق كل ما عنده عادة، وكان الناس يقولون له: لماذا توزع المالَ على الناس هكذا، فكان يجيب: مالكم ولهذا المال؟ إنه مالي وأُنفقه كيفما أشاء، ولا حق لأحد بالاعتراض. فلم ينتفع أي من الخلفاء من بيت المال مطلقا، بل تولّوا الإشراف على إنفاقه على مصالح الناس ومرافقهم فقط.

إذن، فكانت سُرُرُ المؤمنين أرفع من سرر الآخرين. إن ملوك الدنيا يعتبرون خزينة الدولة ملكًا لهم، ويتصرفون فيها كما يحلو لهم، وهذا هو سبب النـــزاعات

الجارية اليوم بين الجماهير والملوك؛ إذ يقولون لملوكهم: يجب أن تنفقوا هذه الأموال على الرعايا، فيقولون: هذه ثروتنا، وسوف ننفقها كيفما نشاء.

فالله تعالى يرسم هنا معالم الحكومة الإسلامية مبينًا أن سرر المسلمين تكون مرفوعة، وحُكمهم يكون لمصلحة الناس، وكأنه تعالى يقول: إنهم يكونون ملوكًا بالاسم فقط في الظاهر، وأما في الحقيقة فيكونون أرفع من ملوك الدنيا، فلن يعتبروا الخزينة ملكًا لهم، بل ملكًا للبلاد والشعب. وهذا هو مفهوم الحكومة الإسلامية، إذ لا تكون الخزينة فيها ملكًا لفرد، بل تكون ملكًا للشعب كله. إن بعض غير الأحمديين الذين يظنون أن جماعتنا كجماعات المتصوفين والدراويش المزعومين الآخرين، يكتبون لي أن عندك أموالاً كثيرة، فأعطنا من فضلك كذا من الآلاف. فأقول لهم في الجواب إن المال الذي يأتيني ليس ملكًا لي، بل هو ملك الجماعة، ولا يحق لي توزيعه على الناس كيفما أشاء! فهؤلاء القوم لا يدركون أنني أيضا خاضع لقانون، ولا يحق لي الإنفاق من بيت المال خلاف هذا القانون. فأشرح لهم حقيقة الأمر كثيرا وأقول: إني لا أملك التصرف التام في هذه الخزينة، بل إن الله تعالى قد جعلني خاضعًا لبعض القوانين، ولكن هؤلاء لا يفهمون شيئا، ويظنون أنني لا أساعدهم بخلاً مني، مما يدل على أن المسلمين قد ضلّوا عن تعاليم الإسلام اليومَ ضلالاً بعيدا، فأصبح ملوكهم وأثرياؤهم من المغضوب عليهم، بينما كان ملوك المسلمين في الماضي محبوبين عندهم وعند غيرهم أيضا، إذ كانوا ينفقون أموال الدولة على مصلحة البلاد ولا سيما على النهوض بالفقراء، كما كان أمراؤهم يعتبرون أموالهم أمانةً ربانية عندهم، فلم يكونوا ينفقونها إشباعًا لأهواء النفس، بل على مرافق العامة ومصالحهم.

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

أكواب: مفردها كوب، وهو كوزٌ مستدير الرأس؛ ويقال: قَدَحٌ لا عُروةَ له. (الأقرب)

موضوعة: وضَع الشيء: أثبته (الأقرب). علمًا أن هناك فرقًا بين الحطّ والوضع، فالحطّ يعني الوضع المجرّد، أما الوضع فهو إثبات الشيء بطريق مناسب، قال الله تعالى ﴿وَالأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾(الرحمن:١١).. أي أن الله تعالى قد هيّأ الأرض لتكون نافعة للمخلوق. كذلك قال الله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾(النساء:٤٧).. أي يغيّرونها عن أماكنها المناسبة.

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ بثلاثة مفاهيم: أوّلُها أن الأكواب ستكون موضوعة بالقرب من المؤمنين، وحيث إن الكوب يوضع قريبًا من المرء ليشرب به، فيُستنبط من ذلك أن هذه الأكواب ستكون مليئة. وثانيها: أن الأكواب ستوضع قريبا منهم غير بعيدٍ. ثالثها أن الأكواب توضع قريبًا من عيون المياه.

هذه الآية تتحدث عما ينعم به المسلمون من قرب الله تعالى وما يتحلون به من سخاء وكرم.

فجملة "أن الأكواب ستكون موضوعة بالقرب من المؤمنين" إشارة إلى امتلائها، والمراد أن الله تعالى سيسقي المؤمنين كؤوس نِعمه مترعةً ويسقيهم إياها كل حين. والمعنى الثاني أن المؤمنين سيملأون كؤوس فضل الله ومنّته ويضعونها بالقرب منهم ليسقوها كل من يزورهم.. أي أنهم يملأون كؤوس المعارف السماوية ويقدّمونها للناس قائلين تعالوا اشربوها.

أما الجملة الثانية " أن الأكواب ستوضع قريبا منهم غير بعيدٍ" فهي تشير إلى أن نيل العلوم السماوية سيُجعَل سهلاً لهم، فيشفون غليل روحهم بجهد بسيط.

أما الجملة الثالثة، وهي: "أن الأكواب ستوضع قريبا من عيون الماء".. فالمراد منها أنهم سيعلنون أنها دعوة عامة، فليشربها من يشاء.

وكأن الله تعالى يقول:

أوّلاً: أن صدورهم ستُملأ بعلوم السماء.

الثاني: أن معارفهم ستكون واسعةً من أجل الجميع، بحيث لن يحتاج أحد للسؤال عنها.

الثالث: أنهم يملأون الأكواب ويضعونها بالقرب منهم قائلين للناس: تعالوا اشربوها.

الرابع: أن تحصيل علوم السماء سيُجعل سهلا لهم.

الخامس: أن أبواب فيوضهم ستكون مفتوحة للجميع، فمن شاء انتفع بها.

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

نمارق: جمعُ نُمْرُقٍ ونَمْرُقٍ ونِمْرُقٍ ونُمْرُقَةٍ وهي: الوسادة الصغيرة يُتّكأ عليها. (الأقرب)

هناك مسند خاص يسمى عندنا (گاؤتكيه) يوضع لرئيس القوم فقط في البلاد المتمدنة، أما النمارق فهي مساند صغيرة توضع عند جدار المجلس يستند إليها أهله.

التفسير: هذه الآية إشارة إلى أن المسلمين كلهم سيكونون معزّزين، إذ لن يستند بعضهم إلى مساند، بينما يظل الباقون من دونها، بل الجميع يكون لهم مساند.. أي أن الله تعالى سيعزّ هؤلاء القوم كلهم ويشرّفهم.

الحق أن هذه الميزة لم تتوفر كاملة إلا في أصحاب رسول الله ﷺ. من المؤسف جدًا أنه لا يزال بيننا كثيرون لا يرغبون في تحصيل علوم الدين، ويجهلون معارف القرآن إلى حد كبير، بل ليس عندهم رغبة بتعلُّم معارفه. هناك آلاف من سكان قاديان لا يواظبون على حضور هذا الدرس القرآني الذي أقوم به، وإذا جاءوا فلا يسعون لأن يعوا ويحفظوا ما يسمعون، وإذا حفظوه لم يُسمعوه الآخرين. كان محمد رسول الله ﷺ هو وحده الذي أُعطيَ تلك الجماعة من الكُمّل الذين إذا سمعوا له قولاً وعوه وحفظوه ثم بلّغوه الآخرين. لا شك أن في جماعتنا قومًا يسعون ليسمعوا كل أمور الدين كالصحابة ويعملوا بها ويبلّغوها الآخرين، ولكن أصحاب

الرسول ﷺ كلهم كانوا يتحلون بهذه الميزة التي يجب أن نغبطهم كلنا عليها ونسعى للتأسي بها. هذه هي الميزة التي أشار الله تعالى إليها هنا، حيث بيّن أن المسلمين ليسوا قومًا يجلس شخص واحد منهم فقط مستندا إلى مسند كبير، بينما يقف الباقون أمامه باحترام، بل كلهم ينالون العز والجاه والعظمة، مستندين إلى نمارق مصفوفة.

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

زرابيّ: هي النمارق والبُسُط، مفردها: زِرْبِيٌّ وزَرْبِيّة. (الأقرب)

مبثوثة: أصلُ البثِّ التفريقُ وإثارةُ الشيء. (المفردات)

كان المراد من قوله تعالى ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أن كل فرد من المسلمين يكون معززًا، وكل القوم يكونون محترمين، وكل منهم يستند إلى مسند وليس أن فردًا واحدًا منهم يعزّ والبقية لن ينالوا الإعزاز؛ أما الآن فقال ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.. أي أن المسلمين سيحظون بهذا التكريم في كل قطر من العالم، ففي كل مكان تكون لهم زرابي مبثوثة، وأهل كل بلد يُعزونهم متأثرين من جاههم ومكانتهم؛ ولذلك قال الله تعالى أولاً ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ثم قال ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، حيث تشير ﴿مصفوفة﴾ إلى أنهم حين يحضرون مجلسًا يلقى كلهم التكريم ولن يصير فيه أحدهم ذليلا، أما ﴿مبثوثة﴾ فليس الحديث فيها عن المجالس، بل تشير إلى أنهم حيثما ذهبوا استقبلهم الناس بفرش السجاجيد، أي رحبوا بهم بحفاوة وأعزّوهم وأكرموهم وتمنّوا أن يزوروا بيوتهم من أجل البركة. إن الناس عادةً يهتمّون بالمظهر فقط، فيظنون أن الاستقبال إنما يكون بمظاهر الفرح والابتهاج من فرش سجاجيد وصنعِ بوابات جميلة وتعليقِ رايات ملونة وما إلى ذلك، والواقع أن الاستقبال الحقيقي لا يكون بفرش السجاجيد، بل بفرش العيون، كما قال الشاعر:

حضرت واعظ جو آئیں دیدہ ودل فرش راہ

أي لو جاءني حضرة الواعظ فسوف أفرش له عيني وقلبي.

ففَرْشُ العيون والقلوب للزائر هو علامة تكريمه وإعزازه في الحقيقة، وإليه يشير قوله تعالى ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، إذ ليس المراد هنا الزرابي المادية، لأن الصحابة لم يكونوا يبالون بها مطلقا؛ فعندما دخل الصحابة على مَلِكِ الفُرس مرّوا في بلاطه وهم يثقبون برماحهم سجاجيد كبيرة وغالية، فقال الفرس: ما هؤلاء الهمج الذين يُفسدون سجاجيدنا الغالية برماحهم؟ ولكن الصحابة لم يأبهوا لهم، فقال لهم المِلكُ: ما لكم وللسياسة؟ فلا تُهلكوا أنفسكم بلا داعٍ، بل خُذوا المال وارجِعوا، فهذا خير لكم. وكان يظنّ أن العرب سيفرحون بالمال وينفضون فكرة الحرب من رؤوسهم. والواقع أن الثمن الذي جعله المِلكُ لهم يكشف لنا مدى احتقار الشعوب الأخرى للعرب – ويبدو أن العرب عندها كانوا طمّاعين وإلا فكيف فكّر المِلكُ أنهم سيرضون بالمال – فأمر أن يعطى كل جندي من الصحابة درهمًا وكل قائد منهم درهمين. ولكن الصحابة ردوا على المِلك: أمامنا سبيلان لا ثالث لهما، إما موتك أو موتنا؛ إذ لا يمكن أن يتصالح الإسلام مع الكفر بعد نشوب الحرب. فاستشاط الملك غضبًا وأمَر بإحضار كيس كبير مليء بالتراب، وأمر قائدَ المؤمنين أن يتقدّم، وأمر بوضع الكيس على ظهره وقال له: أما الآن فلا أعطيك إلا هذا الكيس من التراب. وكان الصحابة يظنون أن القائد المسلم سيرفض حمل هذا الكيس باعتباره إهانة له، ولكنه تقدّمَ وحمل الكيس على ظهره، فاستاء أصحابه من تصرُّفه، ولكنه أخذ الكيس وصاح بأصحابه: تعالوا نذهب، فإن مَلِكَ الفرس بنفسه قد وضع أرضه في أيدينا. والمشرك يكون كثير الوهم، فلما سمع المِلكُ قول القائد المسلم امتُقع لونه وسُقط في يده فقال لحاشيته: أَسرِعوا، وائتوا بهم إليّ، ولكن المسلمين كانوا قد خرجوا بعيدًا ممتطين جيادهم، فرجع رجال المِلك خائبين. (البداية والنهاية: فصل في غزوة القادسية)

فترى كم كانت لطيفة ورائعة فكرة القائد المسلم التي لم تخطر ببال الصحابة الآخرين، إذ ظنوا أنه قد أخطأ إذ حمل كيس التراب، ولكن انكشفت عليهم الحقيقة حين هتف بهم.

ثم إن الصحابة ﷺ أجمعين حيثما ذهبوا استقبلهم الناس بحفاوة وتكريم. هناك حادثة تاريخية شهيرة وقعت عند فتح حمص، فإن المسلمين فتحوها أول الأمر، ثم اضطروا لإخلائها لأن العدو أعاد الكرَّة عليهم بجيش أكبر. فلما أرادوا الانسحاب منها خرج النصارى يودّعونهم قائلين: أعادكم الله إلينا مرة أخرى. فترى أن البلد كان للمسيحيين، وكان المسيحيون في حرب مع إخوانهم؛ إذ كان الملك المسيحي نفسه يحاول الاستيلاء على حمص ثانية، إلا أنهم آثروا المسلمين على ملِكهم المسيحيّ، داعين الله تعالى أن يعود بالمسلمين إليهم ثانية. (فتوح البلدان للبلاذري: أمرُ حمص ويوم اليرموك ص ١٣٦-١٣٧ و١٤٣)

باختصار، قد أخبر الله تعالى هنا أنه حيثما يذهب المسلمون سيفرش لهم الناس عيونهم ويرحبون بهم بحفاوة. يا تُرى، ما الذي كتب الفتح للإسلام وجعل المسلمين ينتشرون في كل مكان؟ إنما سببه أنهم كانوا منصفين عادلين، لا يهضمون حقوق الناس. المرء يحارب الأجانب غَضَبًا حين يرى أنهم سيلحقون به ضررًا، ولكن الناس لما أدركوا أن مَلِكَهم الذي هو من أهل دينهم ظالم وأن المسلمين منصفون وأنهم لو جاءوهم حكموهم حكمًا عادلاً، فإنهم لم يحاربوهم، بل عاملوهم بحفاوة وتكريم. فالله تعالى ينبئ هنا أن المسلمين حيثما ذهبوا فسيفرش لهم الناس عيونهم، يقدّم لهم الناس المساند، ويفرشون لهم المفارش والسجاجيد، كما يحصل عند استقبال الحكام والملوك، حيث يدعونهم لأن يقيموا عندهم لا عند غيرهم.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

الإبل: لفظ الإبل يقع على البُعْرانِ الكثيرة؛ وقيل أُريدَ بها السحاب، فإن لم يكن ذلك صحيحًا فعلى تشبيه السحاب بالإبل وأحوالِه بأحوالها. (المفرادت)

مع أن بعض أئمة اللغة ومنهم الكسائي قال: إن الإبل هنا بمعنى السحاب، فقد قال صاحب المحيط: ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي وقالوا: إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة.

وكنت في البداية أفسّر الإبل بمعنى السحاب بدلاً من الجِمال؛ إذ لم أكن أفهم العلاقة بين الإبل والسماء المذكورة بعدها، ولكن التدبر كشف لي فيما بعد أن الإبل هنا بمعنى الجِمال. ذلك أنني كنتُ أتدبر هذه الآية غاضًّا الطرف عن باقي الآيات، ولكني لما تدبرتها على ضوء سياق الآيات الأخرى وترتيبها تبين لي أن هناك علاقة بين الجِمال والسماء، ولكن لا علاقة للسحاب بالسماء هنا. فقد أصاب صاحب المفردات وصاحب الكشاف حين قالا إن الذين فسروا الإبل هنا بمعنى السحاب فعلى تشبيه السحاب، لأن الجمال أيضا تمشي مرتفعة ومنخفضة كالسحاب. فلوجود الشبه بين مِشية الجمال والسحب قد استعملت كلمة (الإبل)، وإلا فالإبل لا تعني السحاب لغة.

التفسير: في قوله تعالى ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾.. ذُكر الموضوع بدءًا من تحت إلى فوق، أما في قوله تعالى ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فمن فوق إلى تحت؛ مما يبين بوضوح أن الحديث في هذه الآيات هو عن موضوعين منفصلين؛ حيث ذُكر الأول من تحت إلى فوق، والثاني من فوق إلى تحت، وإلا فلا نجد أيّ رابط ولا ترتيب في ذكر الإبل والسماء والجبال والأرض بهذا الشكل. المعروف أن الدرجات

تُذكر عادة بترتيبين: من فوق إلى تحت، أو من تحت إلى فوق. ونرى أن الله تعالى قد ذكر هنا الإبل أولاً ثم السماء، والترتيب هنا مفهوم، حيث نرى أن الموضوع بدأ من أسفل إلى أعلى؛ ثم ذكر الجبال، وهي ليست أرفع من السماء بل ليست بارتفاعها، ثم ذكر الأرض التي ليست أرفع من الجبال. والترتيب الثاني لبيان الدرجات أن يُبدأ بذكر الأعلى ثم الأدنى، ولكن هذا الترتيب أيضًا لا يستقيم هنا، إذ ذُكرت الإبل أولاً، ثم السماء، مع أن الإبل ليست أرفع من السماء، فلا يمكن القول إن الإبل في الأسفل، ثم فوقها السماء، ثم فوقها الجبال، ثم فوقها الأرض. كما لا يستقيم القول إن الإبل أرفع هذه الأشياء، ثم دونها السماء، ثم الجبال، ثم الأرض.

ولكن الترتيب يُذكر أحيانًا بأسلوب آخر أيضا، حيث يُذكر الشيء المتوسط، ثم ما يليه يمينا وشمالا، ولكن الله تعالى قد ذكَر هنا الإبل، ثم السماء، ثم الجبال، ثم الأرض. لو أنه تعالى ذكر أرفع هذه الأشياء أولاً ثم ذكر ما يليه لاستقام الترتيب، ولكن الأمر ليس كذلك أيضا.

إذًا لا يستقيم الترتيب فيما يظهر، ولذلك لم يبق أمامنا إلا أن نعتبر هذه الآيات من دون ترتيب، وهذا خلاف عظمة القرآن، أو نقول إنها تذكر هنا مثاليْن منفصليْن، أُشير في أولهما إلى الموضوع من الأسفل إلى الأعلى، وفي الثاني من الأعلى إلى الأسفل. ففي المثال الأول قد أشير إلى أمر مشترك بين الإبل والسماء، وفي المثال الثاني الأمر مشترك بين الجبال والأرض. وعندي أن هذا هو الصحيح. والإبل هنا بمعنى الجمال، ولكن السماء ليس بمعناها المعروف، بل أريدَ بها السحاب كما في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، إذ تعني هنا السحب أيضا.

كان كفار مكة متكبرين مغرورين بما يتمتعون به من جاه ومكانة ويقولون دائما متباهين: كيف يمكن أن ينتصر علينا المسلمون؟ لقد أشار الله تعالى هنا إلى عادتهم هذه وقال تتباهون بمكانتكم وعزتكم، ولكن الواقع أن مَثَلكم كمَثَل الإبل. لا شك أنها طويلة القامة، ولكنكم تعلمون أنها تُسخَّر لركوب الآخرين دائما. إنها مع سنامها العالي وقامتها المرتفعة وجسمها الكبير وأرجلها الضخمة، تظل دائمًا

تحت الآخرين. فمهما تباهيتم بعزتكم ومكانتكم، إلا أنكم لن تُعطَوا كفاءاتِ الحُكم على الآخرين، بل سيركب الآخرون أعناقكم، شأن البعير الذي يكون عالي القامة، ومع ذلك يركب الإنسان ظهره. وإن السماء.. أي السحب.. هي التي ترتفع وتصعد دومًا لا الجمال، فستَظلّون كالجِمال مطايا للآخرين، ولن تستطيعوا الحُكم على الآخرين. أما أصحاب محمد ﷺ الذين هم كالسماء.. أي كالسحاب الذي يغطي الجوّ.. فهم الذين سيستولون على العالم كالسحب. فشتان بينكم وبينهم!

وبالفعل نرى أن العرب منذ قرون طويلة قبل النبي ﷺ لم يكونوا حاكمين على الآخرين، فتاريخهم المحفوظ منذ زمن إبراهيم عليه السلام يكشف أنهم ظلوا محكومين دائمًا، ولم تُكتب لهم الغلبة على الآخرين أبدا. ولكن نفس الشعب الذي ظلّ ذليلا منذ ٢٥٠٠ سنة، ولم تُكتب له الغلبة في أي قطر من العالم، ولم يكن عندهم عقلية الحاكم.. عندما دخل في طاعة الرسول ﷺ وتمسكَ بأهدابه، صعد من الثرى إلى الثريا في لمح البصر، وأصبح فاتحًا للعالم واستولى على الدنيا كالسحب. ولذلك شبّه الله تعالى هنا الكافرين بالإبل مبينًا لهم أنهم رغم كونهم طِوالاً سيظلون مطايا للآخرين، أما المسلمون فهم كالسحاب الذي يتكون من ذرات غير مرئية للعين، ثم يرتفع ويغطي العالم ويروي الناس.

وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٠﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢١﴾

التفسير: وهذا مثال آخر لبيان الموضوع من الأعلى إلى الأسفل، حيث يقول الله تعالى انظروا إلى الجبال كيف هي راسيات في الأرض. وقد ذكر الله تعالى فوائد الجبال في موضوع آخر وقال ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء:٣٢).. أي جعلنا في الأرض جبالاً كي تصبح ثابتة مستقرّة، ولا يهلك أهلها. الواقع أن الجبال هي التي منعت الأرض من حركة غير طبيعية، وإلا لصار عيش الإنسان عليها محالاً. لقد نبّه الله هنا الكافرين تكملة للموضوع السابق إلى

أنكم تظنون أن غلبة المسلمين عليكم مستحيلة لأنكم ذوو قوّة ومَنَعَة وعزّة، وأن إخوانكم في الدين والدم لن يتركوكم ولن يتبعوا المسلمين، فاعلموا أنه خيال فاسد. لا شك أن فيكم أيضا خيرا، ولكن شتان بينكم وبين المسلمين، والدليل عليه أننا جعلنا المسلمين بمشيئتنا جبالاً، وجعلناكم أرضًا، ولا قرارَ للأرض بدون الجبال، إذ لولاها لم تبق الأرض على حالتها. نحن لا ننكر ما فيكم من محاسن، كما لا يمكن لأحد إنكار مزايا الأرض، ولكن لا تنسوا أن الأرض لا يمكن أن تستغني عن الجبال أو تستقر بدونها، كلا، بل إن بقاءها بدون الجبال مستحيل، كذلك ما دام الله تعالى قد جعل المسلمين جبالاً، فخير لكم أن تفترشوا أمامهم افتراش الأرض للسماء. إن الأرض إنما تنتفع من السماء ما دامت خاضعة لها، كذلك من مصلحتكم أن تذعنوا للمسلمين ولا تهبّوا لمقاومتهم.

أما لو طبّقنا هذا المثال نظرًا إلى رفعة الجبال، فالمعنى أن مثلكم ومثل المسلمين كمثل الأرض والجبال، ولن تزول المفاسد من الدنيا الآن إلا بواسطة المسلمين. لا شك أن الأرض تصبح مخضرة نضرة وتخرج أنواع النبات، ولكنها لا تفعل ذلك إلا بمساعدة الجبال، لأنها هي التي تتسبب في نزول الأمطار وجريان الأنهار. فرقيكم منوط الآن بالمسلمين، ولن تنعموا بالراحة بالانفصال عنهم.

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢٢﴾

التفسير: أي أن كل الترقيات والفوائد منوطة بالمسلمين الآن، ولا يمكن للإنسان أن ينال أنواع البركات إلا بالانضمام إلى أمة محمد ﷺ، التي جعلها الله تعالى كالسحاب الذي يسيطر على الأرض، وكالجبال التي تزيل ما في الأرض من فساد، وتمدّ الناسَ بمنافع شتى، فمن واجبكم الآن، أيها المسلمون، أن تدعوا أعداء الإسلام لاعتناقه؛ فماذا ينفعهم لو عاشوا كالجِمال؟ عليهم أن يكونوا كالسحاب أو كالجبال التي تنفع العالم حتى لا يُداسوا كالأرض تحت الأمم الأخرى.

لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٣﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

المصيطِر: يُكتب بالسين والصاد، ويقال المصيطر والمتصيطر، ومعناه: الرقيبُ الحافظ؛ المتسلطُ على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله. (الأقرب)

إلا مَن تولى وكفَر: الاستثناء هنا منقطع وليس متصلا. والمراد: أما من تولى وكفر رغم النصح فالمسؤولية ليست عليك، سوف يصدّقك ذوو النفوس الطيبة، ولكنا لم نجعلك مسيطرًا لا على المؤمنين ولا على الكافرين.

التفسير: لم يجعل الله تعالى رسوله ﷺ مسيطرا على المؤمنين ولا على الكافرين. إنه ﷺ ليس مسيطرا على الكافرين، لأنه لو أجبر الكافر على الإسلام فلا ينفع الكافرَ إيمانُه ولا ينفع المؤمنين أيضا، لأنه سيُسلِم خوفًا من السيف، فيؤمن بهذا الدين ظاهرًا ويبقى منافقا في قلبه، والمنافق أسوأ من الكافر؛ ولذلك قد نهى الله تعالى نبيّه ﷺ عن إكراه الناس على الإسلام، فقال: لست عليهم بمسيطر مِن قبلنا، ولن ينتفع المؤمنون بإيمان مَن يُكرَه على الإسلام، لأن المنافق سيتسبب في ضعف قوتهم، بدلاً من أن يزيدها.

ولم يجعل الله تعالى رسوله مسيطرا على المؤمنين لأن المرء يفوز برضا الله تعالى بأعمال يقوم بها عن رغبة وشوق. أما الذي ليس في قلبه رغبة للفوز بحب الله تعالى، ولا حماس للعمل بأحكامه تعالى، فإنه يظل بعيدا عن سبل المعرفة والإخلاص، ولو أُجبرَ على القيام بعمل حسن، فلن تتيسر لروحه الطهارة المنشودة، ولن تحظى أعماله بالقبول عند الله تعالى، فلذلك قال الله لرسوله الكريم لم نبعثك مسيطرا على الناس؛ فإن مَن يكفر ولا يرتدع عن سيئاته رغم النصح فاتركْ أمره لنا، لأن جبرك لن ينفعه شيئا. أما المؤمن فعليك أن تزيده رغبةً وشوقا في أعمال الخير لينتفع بإيمانه.

هنا أيضا قد تنبّأَ القرآن بوضوح عن غلبة الإسلام والرسول ﷺ؛ ذلك أن الله تعالى قد أوضح لرسوله أنه ليس عليهم بمسيطر في أوائل البعثة النبوية في مكة، حين

لم يكن لأحد أن يتصور أن الإسلام سينال قوة عظيمة حتى تصبح أعناق الكافرين في قبضة المسلمين، فيفعلوا بهم ما يشاءون. الواضح أن الرسول ﷺ لم يكن يملك أية قوة في مكة حتى يقال له ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾، فثبت أنها نبوءة تتعلق بالمستقبل، وإلا أصبح هذا القول مضحكة؛ إذ لم يكن المسلمون عندها يستطيعون أداء الصلاة علنًا، فكيف يقال لهم هذا في تلك الحالة؟ فثبت من هنا أن هذه الآية كانت نبوءة واضحة أن المسلمين سينالون من القوة بحيث لو أرادوا إكراه الناس على الإسلام لفعلوا، ولكن الله تعالى نهاهم عن ذلك.

وقد خطرت هذه النبوءة ببال الكتّاب المسيحيين أيضا، حيث يقول "ويري" في تفسير هذه الآية أن أفكار الحُكم كانت مسيطرة على قلب محمد منذ البداية، فقراءتُه مثلَ هذه الآيات على أهل مكة في الفترة البدائية دليل على أن خطة الحكم كانت مرسومة في ذهنه منذ البداية، وأن مثل هذه الأفكار قد نشأت في قلبه منذ ذلك الحين. (تفسير ويري)

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: إن فكرة الحُكم تنشأ في قلب المرء لأسباب، فما هي تلك الأسباب؟ فكيف يمكن أن تتولد فكرة الحكم في قلب شخص هو هدفٌ للضرب والاضطهاد ولا يستطيع أن يعبد ربه علنًا وبحرية؟ ثم كيف يمكن أن تتحقق هذه الأفكار أيضا؟

الواقع أن هذه نبوءة عظيمة حيث أخبر الله نبيه أنكم لستم بشيء الآن، ولكن سيأتي زمن تصبحون فيه غالبين بحيث تفعلون ما تشاءون، ولكن لا تُكرهوا أحدا على الإسلام حين تُكتب لكم الغلبة، بل اتركوا الناس أحرارًا في أمر الدين. فمن آمن فرحِّبوا به إلى جماعتكم، ومن تولى وكفر فلا تبالوا به.

فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٥﴾

التفسير: أي أن الذي يتولى ويكفر سيعذَّب عذابا أكبر، لأنه قد كفر بهدي أكبر. العقوبة تكون بحسب الجريمة دائمًا، فإذا كانت الجريمة بسيطة كانت العقوبة

بسيطة، وإذا كانت الجريمة شديدة كانت العقوبة قاسية؛ وجريمتهم ليست بسيطة، لذا لن تكون عقوبتهم بسيطة، لأنهم قد كفروا بالذي هو أفضل الرسل قاطبة، وشريعته أفضل الشرائع كلها.

إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

إيابهم: آبَ إيابًا: رجَع. (المنجد)

التفسير: لقد خُتم بهذه الآية الموضوع الذي بدأ من بداية سورة الأعلى، حيث بين الله تعالى أن كلاً من المؤمن والكافر سيحضر عند الله تعالى بعد إنجاز عمله؛ المؤمنُ بتسبيح الله تعالى والكافرُ بنشر الكفر، ليروا نتائج أعمالهم الأخروية بعد أن شاهدوا عاقبة أعمالهم في الدنيا.

لقد بيّنتُ من قبل أن هناك صلة وثيقة بين سورة الأعلى وسورة الغاشية، ومن الأدلة على ذلك ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى، وإذا قرأ قول الله تعالى في سورة الغاشية ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ قال: اللهم حاسِبْني حسابا يسيرا. (مسند أحمد: مسند ابن عباس ومسند عائشة)؛ وهذا يبين بكل وضوح أن السورتين وثيقتا الصلة من حيث الموضوع عند رسول الله ﷺ، فترديده: "سبحان ربي الأعلى" عند بداية السورة الأولى، و"اللهم حاسِبْني حسابا يسيرا" عند نهاية السورة الأخرى، يبين أن الموضوع الذي بدأ عند سورة الأعلى قد انتهى عند سورة الغاشية.